# الفصل الرابع

## التحولات الاجتماعية في الروايات محل الدراسة

### ٤,١ المقدمة

إن دراسة التحولات الاجتماعية في الرواية الإماراتية يستدعي ضرورة قراءة متون سردية كتبت بأقلام إماراتية، ذلك أن السرد، بما هو ممارسة تخييلية على الواقع وبوظيفته الجمالية الشعرية، يقدم نصوصا هي نتاج علاقة مع وقائع اجتماعية وثقافية تؤطر العالم الكائن الواقعي الذي يندرج فيه الروائي باعتباره أولا كائنا إنسانيا محكوما باشتراطات مجتمعه، إذ لا يوجد فرد خارج المجتمع أو خارج الشروط الاجتماعية للجماعة أو المجتمع الذي ينتمي إليه. ولا يمكنه أن ينتج فنا أو ثقافة بمعزل عن الكل الاجتماعي ولا أن يشكل واقعا تاريخيا بعيدا عن القوى الاجتماعية التي تؤطره وتؤثر فيه.

ولأن الأدب امتداد طبيعي لواقع مفروض متورط فيه، فاعل ومؤثر في الأديب، في حياته الشخصية وفي مواقفه التي تتأرجح بين السلبية والإيجابية، وبين الانعزال والانخراط في هموم وقضايا المجتمع، فإن كل أثر أدبي يشكل رابطة وثيقة بروح العصر الذي كتب فيه، و يتلون بلون القضايا التي تفرض فرضا على الواقع. ضمن هذه العلاقة القائمة بين الأدب والمجتمع، وفي إطار سؤال التأثير والتأثر المتبادلين بينهما، يشكل البحث عن التحولات الاجتماعية في الرواية الإماراتية سؤالا مشروعا يجد له الجواب في النصوص الروائية، ذلك أن كل فنان يعبر واعيا أو غير واع عن قضايا مجتمعه واتجاهات عصره، وتمثل أعماله توثيقا لواقعه الاجتماعي المتغير ذاتيا أو موضوعيا.

وبالنظر إلى أن هدف الرواية هو أن تفهم طبيعة الإنسان وتكشف حركة المجتمعات الإنسانية التي تعي انخراطها في التاريخ حسب تعبير تزفيتان تودوروف، فإن ارتباط نشأة الرواية الإماراتية بالمدنية والتمدن يفسر ظهورها المتأخر تاريخيا تحت تأثير مجموعة من العوامل التي تبلورت بعد اكتشاف النفط والتحول الاقتصادي الكبير الذي غير ملامح المجتمع في فترة زمنية قصيرة. وقد كان لطبيعة هذه النشأة دور فيما تتميز به الرواية الإماراتية من خصائص في المضمون والشكل حددتها طفرة النمو السريعة التي غيرت ملامح المدن وحولت نمط الحياة إلى التحديث والعصرنة.

إن الأدب لا يحدث إلا في سياق اجتماعي، وضمن إطار زمني يستعرض التجارب الإنسانية المختلفة، وبذلك تجد الرواية الإماراتية، بما صورته من تحولات اجتماعية مست مكونات المجتمع باختلاف مجالاته، مرجعا لها في الواقع المتحول بفعل الطفرة الاقتصادية التي عرفتها المنطقة، حيث سجلت دولة الإمارات بعد اكتشاف النفط معدلات نمو اقتصادي عالية على مستوى العالم بفعل عائدات تصدير النفط بكميات تجارية كبيرة، وقيام اتحاد الإمارات السبع عام ١٩٧١م، وما استتبع ذلك من مشاريع تنموية واجتماعية واسعة.

وإذا كانت الرواية بالمعنى الهيجيلي "شكلا فنيا بديلا للملحمة في إطار التطور البرجوازي، ذلك أن الرواية تنطوي على الخصائص الجمالية العامة للقصة الملحمية الكبيرة وللملحمة من جهة، وتتأثر بكل التعديلات التي جاء بها العصر البرجوازي الذي هو من طبيعة أخرى مخالفة من جهة ثانية" (لوكاتش، ١٩٨٧)، فإن الرواية الإماراتية، بدورها، اكتسبت خصوصيتها في النشأة والمواضيع في إطار التطور الذي عرفه المجتمع الإماراتي، والذي كان إيقاعه سريعا بفعل تدفق عائدات استغلال النفط وتصديره، ما أفرز واقعا جديدا تباينت وجهات النظر حوله بين الأجيال والفئات الاجتماعية المختلفة. وقد تناول الروائيون الإماراتيون العلاقات الاجتماعية التي كانت تحكم أفراد المجتمع قبل الطفرة الاقتصادية والتحول المجتمعي



UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

الكبير، فأعلوا من قيمتها ومجدوا القيم القديمة وثبات معاني الهوية والانتماء في مجتمع البحر وتجمعات البحارة والصيادين الذين جمعتهم روح التعاون والمصلحة المشتركة ضد أي غريب مختلف.

في هذا السياق، ظهرت أول رواية إماراتية بعنوان (شاهندة) للكاتب راشد عبد الله، ونشرت بعد قيام دولة الاتحاد سنة ١٩٧١. وقد عملت هذه الرواية "على رصد طبيعة العلاقات الإنسانية، وشبكة تكوينها اجتماعيا وإنسانيا وعاطفيا، كما سعت إلى الدخول في بنية المجتمع الإماراتي آنذاك، وما يحمله من تناقضات وفق مجموعة من الإيقاعات الحياتية التي تفرضها قسوة الحياة وضنك العيش قبل اكتشاف النفط واستخراجه، والتحولات التي واكبت بعض الشخصيات الروائية ضمن الإيقاع اليومي للإنسان الخليجي في تلك الفترة الزمنية التي صورتها الرواية" (حسين، ٢٠١٢)، ثم استمرت الرواية في استكمال مشروعها الفني والتعبير عن قضايا المجتمع الاماراتي لتفرض ذاتها في المشهد الروائي العربي بأعمال كبيرة مازالت تحتاج لمزيد من الاهتمام والدراسة من الباحثين والنقاد المهتمين بقراءة الواقع الاماراتي ودراسة توثيق الرواية للتحولات الاجتماعية.

وللتعرف على التحولات الاجتماعية في الرواية الإماراتية باعتبارها كل تغير ظاهر أو جوهري يحدث في البنيات الثقافية والاجتماعية، والعلاقات والأدوار، والعادات والقيم التي تحكم مجتمعا ما نتيجة تفاعل مجموعة من العوامل والمؤثرات الداخلية والخارجية، ولتصنيف هذه التحولات والتعرف على أنواعها، والكشف عن ارتباطها بالواقع الإماراتي، اختارت الباحثة أربع روايات هي "السيف والزهرة" للروائي علي أو الريش، و"لعلها مزحة" للروائية صالحة عبيد، و"الحي الحي" للكاتب علي الشعالي، و"رسائل عشاق" للكاتبة فتحية النمر، وكلها أعمال روائية ينتقل فيها السرد بين أزمان مختلفة عبر شخصيات تعيش أحداثها الروائية بين زمن ما قبل النفط وزمن التحولات التي نتجت عن الطفرة الاقتصادية المصاحبة لاكتشاف

النفط الذي شكل بداية التحول الاجتماعي الواسع الذي شمل فيما بعد مجالات مختلفة تبادلت التأثير والتأثر فيما بينها.

"إن نقطة البداية الطبيعية والمعقولة في البحث الأدبي هي تفسير وتحليل الأعمال الأدبية ذاتها، إذ أن الأعمال الأدبية هي التي تبرز في النهاية اهتمامنا بحياة الكاتب، وبيئته الاجتماعية، وكل العملية الأدبية". (وليك، وارين، ١٩٩٢)، ولذلك، ستنطلق الدراسة من الروايات باعتبارها فضاء أدبيا سرديا غنيا بالمعطيات الثقافية والاجتماعية، وشكلا من أشكال الاستجابة الجمالية لتحولات الواقع وتغيرات الوعي عند الإنسان الإماراتي، لتقف على الجانب الاجتماعي فيها وعلى نقل الروائي تجربة الإنسان الإماراتي في مجتمعه المتحول في بيئته وثقافته وعلاقاته، وفي التحديات التي يواجهها والصراعات التي يخوضها.

## ٤,٢ التحولات الاقتصادية

### ٤,٢,١ علاقة الإنسان الإماراتي بالبحر قبل اكتشاف النفط

إن القارئ للروايات موضوع الدراسة يقف بوضوح على التحولات التي عاشتها الشخصيات من خلال علاقاتها بالمكونات السردية الأخرى. ولأن كتاب الروايات اختاروا تواريخ وأمكنة حقيقية ربطوها بالتخييل الذي بنوا به عالم نصوصهم السردية، فإن القارئ –من خلال ما يكتشفه من فعل القراءة، وأفق توقعاته– يستطيع أن يقرأ الواقع المعطى للمجتمع الإماراتي الذي صورته الروايات من خلال مشاهد تخييلية وصفت حياة الناس في البحر قبل اكتشاف النفط، ومعاناتهم من الحاجة وشظف العيش وتحديات البحر الذي استنزف البحارة والصيادين.

وقد جاءت الروايات غنية بالمشاهد الوصفية ذات الرموز الاقتصادية التي تبني عوالم السرد، وتثير مخيلة القارئ بما تقدمه من علاقات مختلفة للشخصيات بالبحر، هذا المكان "الذي يشكل تاريخا من حياة

الماضي وصراع الإنسان فيها من أجل البقاء، التحدي مقابل الموت، الإرادة في مواجهة الطبيعة القاسية، حتى أصبح البحر في حياة الشخصية الإماراتية ذاكرة وحلما ورمزا ومخيلة للطفولة النائمة تحت قواقع البحر ويقظة المستقبل المرتجف من تلوث البيئة والتدمير وانتشار الأسلحة والحروب، البحر قدر الإنسان في الخليج حتى وإن غادره مهنيا كحرفة الغوص، فإن صيد الأسماك والاستحمام والتحلية وتدفق النفط، العصب الجديد للحياة، يأتيه جزء منه من أعماق البحر". (عبد الملك، ١٩٩٧)

تنقل رواية "رسائل عشاق" في بنائها التخييلي صورة الحياة في عالم البحر والساحل، وما تعيشه قرى الصيادين من قساوة العيش وتحديات طبيعية واقتصادية لتأمين حاجاتهم اليومية في بيئة لا تجود إلا بالقليل الذي لا يكاد يسد الرمق. تظهر الشخصيات في الشارقة وإمارات الساحل مسلمة بقدرها، مسلحة بالصبر والإيمان لتجاوز البيئة البحرية الصحراوية القاسية. تقول الساردة في (رسائل عشاق، ص ٢٢): "في الثلاثينيات من القرن الماضي، انطوت الحياة في الشارقة، ومثلها في كل إمارات الساحل المتهادن على المهول من القسوة والصعوبة وقلة الحيلة في ظل الشح العظيم في الموارد والظروف، لكن الناس تصدت لهذه الظروف بسلاح في غاية الأهمية، وهو الإيمان بالله والثقة في رحمته الواسعة ورعايته للكائنات بكل أنواعها، فهو وحده الذي يملك تيسير الأوضاع مهما كانت معقدة. أليس هو من خلقهم، وهو من اختار لهم هذه البقعة من الأرض؟ إذن، فلن ينساهم أبدا".

ينطوي المقطع السردي وفق النقد الثقافي على أنساق ثقافية مضمرة قدمتها الكاتبة ضمن خطاب اجتماعي وثقافي محافظ، حيث يظهر النسق الديني واضحا بتفسير سكان إمارات الساحل للمعاناة وقسوة الحياة تفسيرا غيبيا يبرر الارتباط بالمكان كقدر، ولثقافة تسويغ الواقع المفروض بالايمان. كما يكشف النص ثقافة تمجيد الصبر باعتبارها قيمة ثقافية تستخدم أداة لمواجهة قسوة الحياة والتعايش مع واقع لا يتوقع تغيره.

اختارت فتحية النمر شخصية "محمد" ضمن الشخصيات الرئيسة المحركة للأحداث، حيث حضرت في الرواية مشاركة في رحلات الصيد ومغامرات دخول البحر كما باقي رجال الساحل. قرر "محمد" البحث عن مورد آخر للعيش غير السمك، لكن قوة الجماعة تنجح في إعادته إلى ما يعد قدرا لا نفع في البحث عن غيره. ويضطلع السرد في المشاهد الأولى للأحداث بنقل واقع الشخصية المتطلعة إلى موارد مختلفة توفر عيشا أكثر راحة وأمانا: "أسرة محمد بن أحمد تسكن على ساحل الخليج العربي منذ القدم، اليوم يعمل محمد في الصيد مثل سائر أهل القرية، لكن في البداية كانت له مهنة أخرى، كان يكتفي بتربية الحيوانات، وبيع حليبها، وزوجته تتعهد دجاجات لها، فتحصل على البيض، وتبيعة هي الأخرى لحسابها، فضلا عن الخياطة... وبذل الجيران قصارى جهدهم ليغيروا موقفه من البحر، وليشاركهم رحلات الصيد، المهنة التي ورثوها عن أجدادهم، فصاروا أسيادا للبحر والعارفين بأسراره والمتحكمين فيه، هي الحرفة الجالبة للخير الوفير، رغم كل ذلك كان يتهرب، ويصر على موقفه بحجة أن لا صبر عنده ليدخل البحر ساعات، وقد يعود خالي اليدين وهو أمر محتمل، وكثيرا ما يحدث". (رسائل عشاق، ص ٢٤)

وينقل الوصف في رواية "الحي الحي" مشاهد رحلة لصيد السمك يتعاون فيها رجال شاطئ "جميرا" في معركتهم ضد الجوع، وفي المشهد، تظهر شخصية "بن راشد" قائدة للمجموعة، شخصية تتسم بالبطولة والحنكة والمهارة بالقدر الذي يجعلها عارفة بالبحر وأسراره، وبأنواع السمك من انعكاس لون جلده على صفحة الماء. اختار علي الشعالي أن يجعل "بن راشد" نموذج الصياد المتفاعل إيجابيا مع بيئته، وإن كانت شخصية نمطية مرتبطة بما يفرضه مجتمعه الذي يواجه الجوع وقساوة البحر: "وفي لحظة لا يمكن التنبؤ بها، تتوقف ذراعه مشيرة إلى نقطة ما، يصيح الأب بالأبناء: "هناك، جاكم الخير يا رجال، جاكم الخير..."، يهرع الجميع إلى حمل "اليَلّ" الذي فرز وطوي بعد آخر مرة حصلوا فيها على الغنائم، يبل قطن الشبك فترتخي بعض العقد، ويعمل الرجال والنساء على حلحلة الباقي، إنها معركة، ولا وقت للتفريق بين المحاربين

بحسب الجنس أو العمر، فالشأن أعظم من ذلك؛ إما أن يظفروا بسرب السردين أو يحكم الجوع قبضته، العدو الوحيد الأقسى من الحر على هذا الساحل الظامئ. يشق النور رقبة الليل ويتنفس الصبح، ينطلق الصيادون في مغامرة استدراج السردين إلى الشاطئ عبر لعبة المراقصة والإيهام". (الحي الحي، ص ١٥٤)

وتنقل صالحة عبيد قساوة الواقع ومعاناة الأهالي على شواطئ الشارقة وبحرها الذي لا يوفر إلا ما يعد ضروريا للعيش حتى لو كان عطاؤه وفيرا: "في بلاد تكاد تكون مجردة من كل شيء إلا البحر، لم تكن الغلبة إلا للماء المالح، يوزع المصائر، ويقرر سنوات القحط والوفرة". (لعلها مزحة، ص ٦١). وقد كان لشخصية "مسلم" دور رئيس في رسم مشاهد الحياة ضمن مجتمع الشارقة وعائلة "ميرة"، حيث أظهر السرد وتقنياته المختلفة ملامح المجتمع التقليدي البسيط في ارتباط الشخصيات بالبحر ومعاناة "مسلم" في علاقته به، "مسلم" الذي عانى الكثير بعد وفاة والده في مهمة غوص صعبة، وزادت معاناته بعد زواج عمه "هلال" من أمه، واضطراره لمساعدته في خوض غمار البحر لتوفير قوت يوم الأسرة.

كما استعانت الكاتبة بلغة عاطفية لتصوير مشاعر "مسلم" تجاه البحر، والتي تبلورت بدءا من طفولته التي خسر فيها والده في إحدى رحلات الغوص:"كم يكره البحر! .. لطالما كرهه، البحر الذي مزق القلوب، وزرع الانتظارات مرارا دون أن يحصدها، أي قنابل موقوتة كانت تترك على الشاطئ؟" (لعلها مزحة، ص ٢٤)

إن بساطة العيش في محيط شخصيات رواية "لعلها مزحة"، وفي الفضاء المكاني المتمثل في الشارقة تجلى بوضوح فيما أضفته الكاتبة من معاني الكراهية في علاقة الشباب بالبحر الذي أرغمهم، كما أرغم "مسلم"، على امتطاء أمواجه لتوفير لقمة العيش، ويظهر ذلك في المقطع السردي: "ورغم أنه كان يمقت "هلال" في داخله، إلا أنه خرج معه أخيرا إلى السوق معاونا إياه في تأمين ما قد يصلب هذا البيت على



UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

عوده، في زمن الجوع وشظف العيش .. والبحث المحموم عن ذلك السائل النفطي الداكن دون أي نتائج تكاد تذكر". (لعلها مزحة، ص ٣٥)

تتداخل مشاعر القلق الفردي مع ما يتطلبه المجتمع من تضحيات لضمان العيش، ويكشف هذا التقاطع، وفقا للمنهج الثقافي الذي يكشف عن منظومة القيم المتوارثة التي يعيد الخطاب السردي إنتاجها ضمن سلطة البنيات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية. يظهر سلوك "هلال" نسق الواجب الجمعي والتضحية الشخصية في سبيل مصلحة الجماعة، فرغم كرهه لعمه وزوج أمه "هلال"، إلا أنه يضطر لمرافقته إلى السوق، مما يكشف نسق البطولة والشرف والتكاثف العائلي لمواجهة الأزمات التي تجبر الأفراد على الخضوع للجماعة. كما يظهر حدث البحث المحموم النسق الفكري والثقافي المتمثل في التفاؤل والأمل في الخلاص الجمعي المنتظر.

وفي إطار التبئير على موضوع الفقر وشح الموارد الطبيعية في سواحل دبي، إلا مما يجود به البحر من النزر اليسير الذي لا يكاد يوفر قوت اليوم، يقدم السارد في رواية (الحي الحي، ص ١٧٨) شخصية "بن راشد"، البطل الذي يمثل الخلاص لأهل "جميرا" من خطر الجوع، صاحب الرحلات البطولية والانتصارات الكبيرة في عالم البحر وصيد السمك، وإن كانت الغنيمة ليست إلا سمكا يكفي اليوم الواحد فقط: ""بن راشد" على الشاطئ يتتبع سحر السردين من بعيد، يقف على صخرة ويمسح الأفق بقلبه وعينيه، لم يكن لينام وأهل جميرا يشكون قرصة الجوع، وشح الموسم"، فلقب عائلته ب"الصياد"، "وبينا كانت أسر الساحل في مجملها تعمل في البحر، وُسمت أسرة "بن راشد" دون غيرها بلقب "الصياد"، وذلك لمهارة أفرادها واصطفافهم في نظام أوركسترالي وقت جمع العومة، ليسوا كغيرهم البتة؛ فالصباح الذي يُحلّى بضَغْوَة (جمع السمك باستخدام الشبك) يقومون بها صباحٌ بهيج ومبارك لأهل جميرا كلهم". (الحي الحي، ص ١٥٢)

ويستمر السرد في تتبع حياة عائلة "بن راشد" ليصل إلى ابنه "سعيد" الذي ورث مهنة الصيد كما أهل القرية كلهم دون أن يخرجوا عن إطار الفقر وخطر الجوع، يظهر الإصرار والصبر في رحلات الصيد التي يديرها "سعيد" لإعالة أسرته، رحلات ليلية تصارع الطبيعة من أجل البقاء: "كما يأخذ أسرته ذكورا وإناثا، إلى رحلات لصيد القباقيب في خور البيضاء التابع لإمارة أم القيوين. إنها رحلة سفاري ليلية لقنص الحيوانات المائية، يمسك الواحد نيزة (عصا طويلة ذات رأس معدني مدبب وطويل)، وبيده الأخرى مصباحا كثيف الإضاءة، يمشي والماء واصل ركبتيه، يسلط المصباح على القباقيب البطيئة ويقنصها، ثم يكدسونها إلى أن تحصى لاحقا لحسم المسابقة، مخلوقات هشة العظام يكفيك أن تواليها، واحدة بعد أخرى، ضربات دقيقة تخترق أجسامها الخالية من اللحم محافظا على أذرعها الرهيفة التي تحوي فتاتا، ولأنهم يعلمون أن جبلا منها لن يسد جوعهم بعد ليلة حافلة، فإن شيّ الفندال، وتناول المغلفات، ينطلق والليلة طفلة، ويستمر حتى تصير عجوزا". (الحي الحي، ص١٤٨)

وفي سياق البحر وتجمعات الصيادين، اقترن السمك ضمن جدلية الحياة والموت بالنهايات الحزينة. ينقل السارد في رواية "الحي الحي" ارتباط السمك في الذاكرة الجمعية لأهل "دبي" بالموت، حيث شكل في ثقافتهم رمزا للصراع الوجودي المستمر مع الموت، وشاهدا على حكايات الفقد والفراق والخطر الملازم لمسيرة البحث عن الرزق. كان الموت حاضرا بحضور البحر ومع حكايا رحلات الصيد في إمارات ما قبل النفط، واستمر حاضرا بعد الطفرة الاقتصادية والتحول المجتمعي الناتج عنها.

يحتفظ طبيب الأسنان "يحيى" بمجسم لسمكة من المورانو (الزجاج الملون) ضمن التحف التي زينت مكتبه خلال سنوات عمله طبيبا للأسنان في أحد المستشفيات، وهو الذي لم يمارس الصيد مع والده وإن كان يحضر بعضها في شاطئ جميرا حيث بيت عائلته القديم. ويستحضر كل من يزور مكتبه ويرى المجسم معنى الموت: "فيداه مشغولتان بصندوق يحوي الصور والتحف التي زينت مكتبه طوال السنوات التي عمل

فيها نحاتا وبناء للأسنان، صورا له في حله وترحاله المتعاقبين في الجدال أبدي، ومجسما لسمكة من المورانو صنعت له هو، وقد أصر أن تكون من نوع الشعري (نوع من السمك)، ولم يقبل منطق البائع: "سيدي، إنها قطعة تجميلية، لا أقل ولا أكثر، ولا ينبغي أن تربط بالثقافة و الانتماء وتلك المعاني الثقيلة". يومه أعاره يحي أذنا صماء، فقد أراد أن يحوز ما يذكره بجميرا وبحرها الزاخر، وبأبيه الذي لم يصطد معه السمك، وأمه التي علمته كيف يتقي الغرق بألا يجازف كالحمقى بكل ما هو نفيس... وقد ظل يحتفظ بها في عيادته رغم ما لاقى من قصف نقدي من قبل المرضى وزملائه الأطباء قائلين "إن ما يرمز للموت لا يجب أن يوجد في معامل الحياة". (الحي الحي، ص ٧)

إن نمط الحياة الشاق لقرى الصيادين وملامح عيشهم البسيط قد انعكس على شخصيات الرواية وعلى وجوه الأهالي وسحناتهم، وظهر ذلك في معرض وصف حصن الشارقة القديم في أول يوم أصبح فيه "مسلم" شرطيا: "فيما يعبر الناس حول المكان في شيء من الهيبة والتردد، منصرفين لشؤونهم بين البحر المحاذي واليابسة التي تبدو لكأنها قد خرجت منه كخطيئة، كقبعة منسية هي وأهلها المتعبة سحناتهم جراء الجوع والشظف" (لعلها مزحة، ص ٢٣)، "يهلكون من الجوع يفنون بسبب صراعهم مع البحر ومع الصحراء ومع حرارة الشمس الملتهبة". (لعلها مزحة، ص ٦٥)

وفي سياق التأطير المكاني للأحداث، ولأن المكان "لا يتشكل إلا باختراق الأبطال له، وليس هناك، بالنتيجة، أي مكان محدد مسبقا وإنما تتشكل الأمكنة من خلال الأحداث التي يقوم بها الأبطال ومن المميزات التي تخصهم" (بحرواي، ١٩٩٠)، فإن ما يعكس بوضوح معاناة السكان في وضع اقتصادي صعب جدا هو اختيار كتاب الروايات البحر الذي يتجاوز في علاقاته بالمكونات السردية الأخرى أبعاده الجغرافية لينتج دلالات كثيرة ومعان معقدة يشكل فيها البطل المأزوم "خلفان" في رواية "السيف والزهرة" رمزا لعلاقة مزدوجة للإنسان بالبحر وبأمواجه في ظلام الليل، حيث تمثل الأولى علاقة ارتباط باعتباره

مصدرا للعيش في بلد فقير يعاني فيها الناس شظف العيش، علاقة بفضاء يمثل الوطنَ الأم الذي لا مفر للإنسان معه من الارتماء في أحضانه في معركة الوجود لتحقيق البقاء.

هذه العلاقة التي ميزت حقبة من الزمن توارث فيها الأبناء عن آبائهم وأجدادهم تعلقهم بالبحر مصدرا لعيشهم في بيئة لا تجود بغيره. وتمثل الثانية علاقة مواجهة يؤثر فيها البطل الإيجابي في الشخصيات وفي سير الأحداث وتطورها، ويواجه مصيره بوعي وإيجابية وحزم دون عجز أو تردد. ينظر "خلفان" إلى البحر نظرة الواثق المعترف بالجميل في مقابل صراعه اليومي مع أمواجه العاتية وعالمه المخيف الذي كلفه حياته، يقول في الحوار الذي دار بينه وبين ابنه "سلطان": "وكيف يعيش الناس بدون السمك؟ فمنه غذاؤنا ومصروفنا اليوم يا بني.. نحن لم نسرق أحدا ولم نفعل ما يغضب ربنا، فهذه طبيعة البشر والله سخر لنا هذه الكائنات ليستمر وجودنا على الأرض". (السيف والزهرة، ص ٨)

ويستمر السارد في عرض الأحداث مستعينا بالوصف ليجعل القارئ يجوب عالم البحر ويستكنه بواطن شخصية "خلفان" وسلوكها وعلاقاتها بالمكان الذي يمثل مصدر عيشه، حيث تظهر الشخصية في مشهد كدح وعمل شاق تتشقق فيه اليدان وتنزف منهما الدماء. يتمكن "خلفان" في معركته اليومية من أجل البقاء من قهر السمك رمز الموت ومصدر الحياة. يقول السارد في: "اختلط الظلام وبدأ عطاء البحر يقل شيئا فشيئا، وكلت يدا خلفان من الجذب والسحب، ولم يعد بمقدوره الانتظار أكثر طالما لم يأت الانتظار بنتيجة.. طوى الخيط وركنه جانبا والتفت ناحية سلطان الغائص في هذا الخضم المفتون بسحر جمال هذه الألوان المختلفة والأشكال المتنوعة. القارب الصغير يغص بالسمك الكبير والصغير بمختلف أنواعه وأصنافه، ثم رفع بصره متفحصا وجه أبيه المغسول بابتسامة عذبة دلت على فرحته الغامرة بهذا الخير الجزيل، ثم تفرس مليا بيديه المعروقتين وقد تشققتا ونزف منهما الدم وقد بدت أصابع والده كمخالب

وحش مفترس، لكنه وحش يصارع البحر ويفتك بالأسماك ليهب الحياة إليه وإلى إخوته الذين ينتظرونه ومعه ينتظرون لقمة العيش". (السيف والزهرة، ص ٨)

بهذا المقطع الذي يصف صراع "خلفان" مع البحر، تتولد العلاقة الأولى للقارئ بالشخصية الروائية التي تمثل البطل. ويتابع الكاتب رسم صورته بدقة وعناية تبدأ بوقفاته الطويلة عند ملامحه الجسدية والنفسية وهو يصارع البحر من أجل البقاء، وليجمع قوت أبنائه الثلاثة الذين ينتظرون عودته آخر النهار. إن اعتبار النص وفقا لأدوات النقد الثقافي منتجا ثقافيا تحرك الأنساق المضمرة فيه أفعال الشخصيات وسلوكاتها يظهر من خلال المشهد السابق نسق تمجيد التعب والكدح للتعايش مع قسوة الواقع، وذلك عبر وصف بطولة "خلفان" في مأساته اليومية التي يستعد لها بما يتجاوز قدرته الجسدية، ويتحول فيها إلى وحش في نظر ابنه، ما يكشف نسق الأبوة البطولية الذي يمثل فيه الأب المعيل الوحيد للأسرة.

وحين يقل الصيد ويبخل البحر على الصيادين، يستمر "خلفان" في مصارعة قدره وفي حربه من أجل البقاء في ظروف يعاني فيها شظف العيش وقلقه المستمر لتوفير ما يعيله وأسرته. تظهر مشاعر الشفقة والحزن في حديث "سلطان" مع نفسه يوم عادا من رحلتهما بقارب فارغ. لم يقبل أن يرى صورة أبيه تهتز حين غلبه البحر، ولم يحظ منه بشيء، ولا صورة أمه المنكسرة مخافة الجوع والحاجة: "أبي قوي، ورغم كبر سنه وتجعد جلده ومشيب شعره، فهو يصارع البحر بعنف وإصرار.. أمي مسكينة، ضعيفة ولذا تخاف، تهرب من كل شيء.. عندما عدنا إلى البيت بدون سمك، حزنت وشعرت بالأسى. خشيتْ من الجوع فابتأست". (السيف والزهرة، ص ٣٥)

ولأن الروائي "ليس دائما بحاجة إلى إتقان فن الوصف (المظهري والنفسي) لكي يجعل شخصياته واقعية وذات دلالة وتعيش في وعي القارئ، إن المهم هو أن يعرف الكاتب كيف يقيم علاقات منطقية متلاحمة بين وجود الشخصية (المظهري والباطني) وبين السياق الاجتماعي والإيديولوجي الذي يندرج فيه

ذلك الوجود، فالسمات المظهرية أو النفسية للشخصية سواء كانت دقيقة أو إجمالية تكون دائما متضامنة مع رؤيات العالم التي تميز لحظة من لحظات المجتمع" (بحرواي، ١٩٩٠)، لذلك اختار أبو الريش صفات لشخصياته تتماهى مع الجو العام لمجتمع القرية والبلد ومع الوضع الاقتصادي الضعيف القائم على صيد السمك. وكذلك فعلت فتحية النمر في رواية "رسائل عشاق" حين اختارت شخصية "محمد بن أحمد" وعلاقته بمهنة الصيد. تقول الساردة: "الحرفة الرئيسية لسكان القرية بما فيهم أسرة محمد بن أحمد، والد الطفل المشتبه فيه والمشبه بالشيطان، وزوج فطيم، هي صيد الأسماك، ونقل البضائع عبر القوارب الشراعية وغيرها، حتى التجارة بأنواعها البسيطة والمتوسطة للموانئ القريبة والبعيدة من مينائهم". (رسائل عشاق، ص ٢٣)

وفي سياق ارتباط الحياة الاجتماعية بالأنشطة المتعلقة بالبحر وبما تجود به البيئة الجغرافية من موارد طبيعية، تستمر فتحية النمر في رسمها الفني للمسار المكاني للرواية، حيث يتشكل المحكي ومكوناته الفنية في فضاء البحر الذي ترتبط به الشخصيات ارتباطا اقتصاديا ورثته عن الأجداد، وإن كان لا يسد حاجاتهم دائما ولا يغنيهم أو يوفر لهم ما يزيد عن الحاجة اليومية، وتستعير الكاتبة صوت السارد، باعتباره شخصية تخييلية، لتنقل واقع الصيادين: "فيا ألله، ما أعظم الطبيعة! وما أبهى عطاياها! هي تأخذ كثيرا من دون خجل أو حياء، وفي المقابل تعطي بدون قيود وبسخاء لا مثيل له، وإن جاءت عليهم أيام يصيرون في مواجهة الشح، حيث يستغرقون في رحلة طويلة ومنهكة، تستهلك ساعات وساعات، وفي النهاية تكون الأيدي صفرا. لكن حتى عند هذه اللحظات المريرة، كان عليهم أن يشكروا الخالق، ويظلوا يشكرونه إلى أن يتعبوا، ليكون في هذا الحرمان درس بليغ". (رسائل عشاق، ص ٥٤)

وبرؤية دقيقة؛ تقول فتحية النمر على لسان ساردتها، وهي تربط فضاء البحر بخلفيته الاقتصادية وتشرح النشاط المهني لكل سكان القرية في بنية اجتماعية واقتصادية تؤشر لخصوصية حياة الصيادين في

مجتمع الشارقة: "كان أهل القرية – حتى تلك الفترة – لا يجرؤون على الذهاب إلى أبعد مما يتطلبه الصيد، مستخدمين قواربهم المصنوعة بأيديهم من موارد البيئة المتوفرة لديهم، وكان القليل منهم ينضمون إلى مراكب الغوص بحثا عن اللؤلؤ". (رسائل عشاق، ص ١٩٨)

أما من ابتعد من السكان عن البحر، فقد اتخذوا لهم مهنة الزراعة مصدرا للدخل القليل الذي يؤمن لهم العيش. تنقل فتحية النمر معطيات من الواقع تجد تجلياتها في دلالاتها الاقتصادية التي تميز بها أهل الصحراء: "هناك غيرهم من الأهل من انحازوا للعيش في نواح ثانية، واختاروا الصحراء، وكلما سنحت لهم الظروف المعيشية بالتوغل أكثر كانوا يفعلونها ويسيرون على أمل الحصول على ما يكفيهم، ويسد رمقهم، ويقيهم النائبات. هؤلاء الصحراويون لا يعرفون الصيد، ولا يعرفون شكل السمك، وهم يعتمدون على رعي الأغنام والإبل والأبقار وإن ضحك لهم الحظ، وابتسمت الأقدار، وصادفوا الآبار والمياه قريبا من خيامهم فإنهم يشتغلون بزراعة النخيل والليمون والمانجو والجوافة فضلا عن الخضراوات كالرويد والبصل والفجل واللفت". (رسائل عشاق، ص ٢٣)

كما تظهر موارد دخل أخرى لسكان البحر في محكي رواية "رسائل عشاق" حيث كان "محمد" يوفر قوت يومه من تربية الحيوانات وما تنتجه من مواد يتاجر فيها قبل أن يلتحق بباقي رجال القرية ويخوض معهم معارك البحر اليومية. تقول الساردة: "أسرة محمد بن أحمد تسكن على ساحل الخليج العربي منذ القدم، اليوم يعمل محمد في الصيد مثل سائر أهل القرية، لكن في البداية كانت له مهنة أخرى، كان يكتفي بتربية الحيوانات، ويبيع حليبها، وزوجته تتعهد دجاجات لها، فتحصل على البيض، وتبيعه هي الأخرى لحسابها، فضلا عن الخياطة". (رسائل عشاق، ص٢٣)

إن ظهور "خلفان" وتطور الأحداث في الإطار المكاني الذي يتبعه اتجاه السرد في رواية "السيف والزهرة" ارتبط باختراق الشخصية للبحر في محاولة من الكاتب لجعل الأحداث المتخيلة مماثلة للحقيقة

والواقع، وكأن البحر سبب لوجود الحكاية. يصر "خلفان" على مصاحبة ابنه له في رحلة الصيد الشاقة في صورة واضحة للاستسلام لقدر جعل السمك الوجبة الوحيدة لأهل القرية، لا ينالها إلا من استطاع مواجهة البحر بعوالمه الغامضة وأسراره المخيفة، البحر البطل الفاعل المشارك الذي يحتوي الحدث ويحرك الشخصيات التي تحيا فيه بمشاعرها وأحاسيسها، وتتفاعل مع إيقاعاته القوية ورموزه الدالة وعاداته وتقاليده. يقول السارد: "ازداد هياج الموج، واشتعل البحر بضجيج مدو، وفتك الخوف بصدر سلطان وهو يرى العرق يتصبب من جبين أبيه وقد اشتدت أوتار عنقه وتورمت عروق عضلاته. يريد أن يصرخ يبكي لكنه يخشى من لطمة تهوى على صدغه أو زعقة تنتزع قلبه من صدره. فقد حذره والده من الخوف، وعلمه الصبر والإيمان بقدرة الله.. فكر كثيرا ودمه يتدفق في عروقه كبركان حانق أو كهذا البحر الغاضب. لكن أين أنا من غضب هذا البحر ومن قوته وجبروته.. إنه عندما يغضب يستطيع أن يفتك ويقتل حتى أبي البطل لا يستطيع مواجهته، وعلامة ضعفه تتجلى من اكفهرار وجهه واصفرار بشرته.. أجل إنها قدرة الله ولا مفر من عزة الله وجبروته، حتى هذا البحر القوي، يخضع لإرادة الله القوي يفرض قوته على الضعيف وكما يسحب أبي السمكة الضعيفة بصنارته من خيشومها فالقدر يسحبنا طوعا حيث يشاء". (السيف والزهرة، ص ٤)

وبنفس النبرة، ينقل علي الشعالي على لسان سارده مشهد الصيد في ساحل دبي، وما يؤثث فضاء البحر من حركات ومشاعر خلال معركة البقاء، حيث انتصار الصياد في معركته الوجودية ضد البحر يكسبه قيمة وشرفا. يصور الكاتب طرفي الصراع كأنهما في حرب من أجل الحياة، يموت فيها المنهزم ويخسر ذاته وهويته، ويضع الصراع في بناء الخطاب السردي الصيادين أمام التحديات اليومية التي تشكل جزءا من حياتهم، كما يشحن القارئ بمشاعر التوتر والتشويق، ويدفعه نحو التعاطف معهم، حيث يشترك السرد واللغة وانزياحاتها، والمكان والزمان وغيرها من المكونات السردية لتتحقق هوية العالم الواقعي في وعي القارئ

مقابل تحقق هوية العالم المتخيل في عالم الرواية. يتجاوز الصيادون صراعهم مع البحر، وكفاحهم من أجل لقمة العيش ليشمل معان أعمق تتعلق بوجود الإنسان وقدرته على التحدي ومواجهة الموت، يقول السارد في (الحي الحي، ص ١٥٥): "ينطلق الصيادون في مغامرة استدراج السردين إلى الشاطئ عبر لعبة المراقصة والإيهام، حتى يحاصروه، ثم تتغير قوانين اللعبة، مركب في الشرق وآخر يقابله، يضرب البحارة بأرجلهم أسطح المراكب لإرباك السمك، إذا أردت أن تهزم خصما فما عليك إلا أن تزعزع استقراره، تزلزله، وتجعل القرار بيده وهو في أوج خوفه حيث لا يظهر الفرق جليا بين الصواب والخطأ، وسترى أنه غالبا ما يختار القفز إلى فخاخك، ويعينك على نفسه. الأمتار الأخيرة هي الأصعب، يلتحم المركبان بالرمل ويحكمان الحصار على السرج الهائج، إنه يتشكل في هيئات عديدة، مرة كثور، وأخرى كهاون مسنن يضغط على مفاصل الشبكة. صيد السمك هو فن التمايل مع الخصم حتى إنهاكه، من يتعب أولا يخسر، وكلما علا شأنك في المهنة أصبحت مسألة شرف أكثر من أي شيء آخر. تشتعل السماء بالسراج العظيم فتنعصر أجساد البحارة، ويظهر الإنهاك على بعضهم، أما عيال "بن راشد" فلا يحق لهم ذلك، الأكف متشبثة بالحبال، وعروق السواعد مشرئبة، والأب بصوته المجلجل يعلن أنه وقت الحسم، فيهتف الرجال في أزيز منتظم: "يا الله.. يا رزاق، يا الله.. يا وهاب، يا الله". (الحي الحي، ص ١٥٥)

يستمر نسق الصراع والكفاح من أجل لقمة العيش عبر مشهد الصيد الذي وظف معه علي الشعالي لغة الحرب ومعجم الملاحم البطولية، حيث قدم كفاح أهل القرية وتكاثفهم في احتفاء جماعي بالفوز، وهو ما يكشف نسقا روحيا جماعيا ينجسم فيه الجهد العضلي بالإيمان بالله ونصرته لمن يستعين به. كما يظهر نسق الشرف المهني الذي تقاس فيه قيمة الفرد بقدرته على الصبر والتحمل ومواجهة تحديات البحر.

تتجاوز علاقة الشخصيات بالبحر في الروايات محل الدراسة الشعور والوعي، لتستقر في اللاشعور الذي استبطن حقيقة الصراع من أجل البقاء، فأصبح مكانا جاذبا يحقق فيه الصياد ذاته ويعزز هويته

وجوهر وجوده، حيث تنطوي علاقة كل إنسان بالمكان "على جوانب شتى ومعقدة تجعل من معايشتنا له عملية تجاوز قدرتنا الواعية لتتوغل في لا شعورنا. فهناك أماكن جاذبة تساعدنا على الاستقرار، وأماكن طاردة تلفظنا. فالإنسان لا يحتاج فقط إلى مساحة فيزيقية، جغرافية يعيش فيها، ولكنه يصبو إلى رقعة يضرب فيها بجذوره وتتأصل فيها هويته، ومن ثم يأخذ البحث عن الكيان والهوية شكل الفعل على المكان لتحويله إلى مرآة ترى فيها "الأنا" صورتها، فاختيار المكان وتهيئته يمثلان جزءا من بناء الشخصية البشرية". (جماعة من الباحثين، ١٩٨٨)

ولارتباط الشخصية في البناء الروائي بنظام اجتماعي معين، فقد مثلت الشخصيات في الروايات محل الدراسة مكونات روائية فاعلة وذوات فردية بملامح اجتماعية وصفات بطولية تقاوم بها مصيرها، وتشحذ بها هممها حين تزيد الحواجز وتشتد الصراعات. "فالمكان لا يظهر إلا من خلال وجهة نظر شخصية تعيش فيه أو تخترقه وليس لديه استقلال إزاء الشخص الذي يندرج فيه. وعلى مستوى السرد فإن المنظور الذي تتخذه الشخصية هو الذي يحدد أبعاد الفضاء الروائي ويرسم طوبوغرافيته ويجعله يحقق دلالته الخاصة وتماسكه الأيديولوجي". (بحراوي، ١٩٩٠)

لقد اهتم كتاب الروايات الأربع بوصف البحر، ولم يفعلوا ذلك "من حيث الانبساط والاتساع والكثافة والزرقة والرومانتيكية وحسب، وإنما ركزوا على البحر كموضوع اجتماعي، كإنتاجية ومصدر للمعيشة؛ لذا انتقلت الشخصية في غالبية القصص المتعلقة بماضي المجتمع الإماراتي لحالة الصراع، فوجدنا قطبي الشخصيتين المتناقضتين لتلك المرحلة من مجتمع البحر حيث النوخذا (مصطلح خليجي يشير إلى قائد السفينة التجارية أو سفينة صيد اللؤلؤ، وهو الذي يتخذ القرارات المتعلقة بالرحلة البحرية)، ويعيش إلى جانبه رتل الغواصين، وكعادة أبناء الخليج العربي، يكثفون اهتمامهم وأوصافهم على الجوانب الاجتماعية لحياة البحارة وأكثرها محورية الصراع مع النوخذا والبحر من أجل لقمة العيش". (عبد الملك، ١٩٩٧)

تظهر قساوة العيش في قرى الصيادين في مشهد للصراع مع البحر بحثا عن اللؤلؤ، وقد كان أغلبهم لا يجرؤ على ركوب السفن لهذا الغرض، بل يكتفون بما يوفره البحر من سمك. يقهر البحر "مسعودا" الذي جرب مراكب الغوص بقوته الجسمية وشجاعته وفطنته، مسعود الذي كان مشهورا بشجاعته، "وكان لا يهاب الأعماق، فضلا عن أنه كان على درجة عالية من الذكاء والفطنة تؤهله ليحدس أمكنة الهيرات العامرة والأصداف المحمولة بالخير؛ لذا فقد تمسك به النوخذة، وكان يخطط لاستغلاله على أكمل وجه بأن يجعله في المرات القادمة شريكا له، ويحمله جزءا من تكلفة الرحلة، ليضمن أن يبقيه تحت تصرفه، ولا يترك الفرصة لغيره أن يستميله، لولا أن القدر القاسي —كعادته— قال كلمته الأخيرة. لقد غرقت السفينة بكل ما فيها ومن فيها في عرض البحر بتكالب الأمواج العاتية، وكان المسؤول عن تسييرها وتبديل مسارها تبعا للظروف والأحوال الجوية هو الرجل الذي كان معروفا عنه فقدانه السيطرة على نفسه والوقوع في براثن النوم، فيما كان الأمر يتطلب يقظة وانتباها عاليا. صرخ البحارة، واصطخبوا، ورفعوا أصواتهم بنداءات الاستغاثة والانتحاب، لكن في غمضة عين اختفى كل شيء من المشهد، لقد مات الجميع، ومن بينهم مسعود المسكين". (رسائل عشاق، ص ١٩٩)

إن الروائي يسعى أثناء تشكيل فضائه الفني إلى أن "يكون بناؤه له منسجما مع مزاج وطبائع شخصياته وأن لا يتضمن أية مفارقة، وذلك لأنه من اللازم أن يكون هناك تأثير متبادل بين الشخصية والمكان الذي تعيش فيه أو البيئة التي تحيط بها بحيث يصبح بإمكان بنية الفضاء الروائي أن تكشف لنا عن الحالة الشعورية التي تعيشها الشخصية بل وقد تساهم في التحولات الداخلية التي تطرأ عليها" (بحراوي، ١٩٩٠)، ولذلك، لم يكن البحر في الروايات موضوع الدراسة مكانا محدودا بجغرافيته، بل مساحة مكانية "تتسع لتشمل البيئة بأرضها وناسها وأحداثها وهمومها وتطلعاتها وتقاليدها وقيمها"، كأنها "كل زاخر

بالحياة والحركة، يؤثر ويتأثر ويتفاعل مع حركة الشخصيات التي تتحرك على أرضه، ومستوى المواقف التي تحدث في إطاره، واتجاه الصراع الذي يدور في داخله". (عثمان، ١٩٨٢)

ظهر البحر، إذن، في الروايات مصدرا رئيسا للموارد والرزق ومؤثرا في طباع الشخصيات وسلوكها، وفي طريقة حياتها وتفكيرها والقضايا التي تخوض صراعات من أجلها، كما كشف البيئة الاجتماعية للشخصيات والوضع الاقتصادي الذي يتحكم فيها ويحدد ملامحها وطبيعة معيشها اليومي. إن بساطة العيش والمورد الطبيعي الوحيد الذي كان يوفره البحر، جعل مهنة صيد السمك في عوالم الروايات محل الدراسة محددا للنظام الاقتصادي السائد قبل النفط باعتبار مكون الموارد البشرية والموارد الطبيعية، وعلاقات الإنتاج والتوزيع البسيطة لتوفير الحاجات اليومية.

### ٤,٢,٢ الابتعاد عن البحر، بداية التحول

شكل البحر في الروايات محل الدراسة بؤرة تنهض بالحكي وتحتوي الحدث، وتنتج دلالات الحركية في الواقع الإنساني المتغير، حيث بدت بوادر التحول في استبشار الأهالي بتغير حالهم بعد أن بدأ التنقيب عن النفط، وذلك عبر تطور الأحداث التي وصلت إلى كساد تجارة اللؤلؤ، وهو ما عبرت عنه الساردة في رواية (لعلها مزحة، ص ١٦٦): "انتهت أزمنة الغوص بشكل قاطع منذ سنوات، وحل محلها زمان التنقيب عن النفط، حيث البحث عن الأبيض اللامع من اللؤلؤ أصبح بحثا مستميتا عن نقيضه الداكن" (لعلها مزحة، ٢٤)، وحيث كان توقع الأهالي أن "حيازة النفط ستجلب لهم الرخاء الذي بدأت مظاهره ترى في الكويت مثلا". (لعلها مزحة، ص ١٦٦)

وقد اضطلع السرد في رواية "رسائل عشاق" بوصف هذه البدايات من خلال الصورة التي انتهت إليها شخصية "مسعود" خلال رحلة بحث عن اللؤلؤ، هذه المهنة التي بدأت تندثر لأسباب اقتصادية محلية

وعالمية تداخلت تداعياتها الواقعية بملامح عالم الرواية التخييلي. عرف الغواصون أولى التحولات بتأثير من الأزمة الاقتصادية ومنافسة اللؤلؤ الصناعي الياباني لسوق اللؤلؤ الذي تذهب أرواحهم في رحلات استخراجه. تحكي الساردة قصتها وتصور مشاعر الكآبة والحزن التي تسكن قلبها بين أفراد أسرتها، وتتذكر "مسعودا" صديق أخيها الذي مات شابا في رحلة للغوص: "مسعود الذي اختطفه البحر من عياله وزوجته الشابة، وأحرق قلبها، مات وهو في أول العمر في واحدة من رحلات الغوص بحثا عن اللؤلؤ، هذه المهنة التي كانت في طريقها للاندثار والاختفاء من الدنيا لأسباب يعرفها الجميع، أولها الأزمة المالية التي حلت بالعالم كله متزامنة مع انهيار أسواق الأوراق المالية العالمية، فضلا عن ظهور اللؤلؤ الياباني المزروع الذي يعد أقل كلفة، والذي من أهم صفاته أن الحصول عليه لا يخطف الأرواح التي لا حصر لها". (رسائل عشاق، ١٩٨)

سجل المقطع السابق تداخل عالم شخصية "مسعود" مع عالم الواقع الاقتصادي بحقائقه التاريخية الحقيقية، حيث تحول الخيال إلى أداة لاستكشاف الواقع، واستثمر الواقع بدوره في عملية التخييل بمكوناته الفنية. جاء موت "مسعود" ضمن الذين غرقوا في صراعهم مع أمواج البحر العاتية في آخر أيام الغوص وبدايات الابتعاد التدريجي للصيادين عن النشاط الاقتصادي الذي كان مصدر رزقهم ومنشأ أحزانهم ردحا من الزمن.

وقد ارتبط الابتعاد عن البحر والبحث عن معالم حياة جديدة بالتحول الكبير في مجال الموارد الاقتصادية والأسواق والخدمات. تنقل صالحة عبيد، استنادا إلى ساردها، مشاعر الحقد والكراهية التي يكنها "مسلم" لعمه "هلال" الذي يراه مسؤولا عن موت أبيه في رحلة غوص لم يقم فيها بدوره في سحب الحبل المربوط به وهو في قاع البحر، وكانت الرحلة هذه، كرحلة "مسعود" في رواية "رسائل عشاق"، ضمن آخر رحلات الغوص التي عرفتها القرية، يقول السارد بأسلوب يتسم بالحدة ويحمل معاني الاتهام: "ذلك

المجرم الذي لم ينل جزاءه الذي يستحقه بعد، بل أصبح كل من يراه يتلطف معه في شفقة، "هلال" المسكين الذي تجبر عليه وعلى "إبراهيم" النوخذة "راشد" والتاجر "غيث" في آخر أيام الغوص بعد كساد سوق اللؤلؤ الطبيعي.. رافضا إعتاق قافلة غوصه، ليذهبوا باحثين عن رزقهم بين المنقبين عن الذهب الأسود". (لعلها مزحة، ص ٢٧)

ويتصاعد خط سير الأحداث ليكمل محكي سكان القرية وبينهم "إبراهيم" الذي قضى وانتهت حياته كما انتهت مهنة استخراج اللؤلؤ مع بدايات وصول الشركات الأجنبية المنقبة عن النفط وتوجه البلد نحو اقتصاد جديد قائم على إنتاج سلع وخدمات مختلفة وفتح أسواق جديدة: يقوب السارد في (لعلها مزحة، ص ٥٥): "كان أحد آخر أبناء تلك السلالة الموشكة على الانقراض تماما كهذه المهنة التي يتحسس أفرادها ضياعهم الوشيك مع تراجع الطلب وضعف السفن وإشاعات الذهب الأسود الذي يتطلب غوصا آخر، لا يلائمهم، لا يعرفه إلا أصحاب البشرة البيضاء التي تستعر تحت الشمس كاشفة عن حمرة مخيفة".

وفي محكي رواية "الحي الحي"، يقف القارئ على التحول الاقتصادي الذي نقل دبي، وفيها عائلة "يحيى"، من صيد اللؤلؤ إلى صيد السمك فتجارة المواد الثمينة واستيراد المنتجات الفاخرة. تتأثر شخصية "يحيى" بالأحداث وبالتغيرات التي عاشتها الأسرة وصيادو شاطئ جميرا، فنشأته خلال سنوات طفولته في مجتمع بدأ يعرف أولى صور التحولات على مستوى الموارد الاقتصادية أبعدته عن البحر ودفعته نحو المدارس الحديثة والتكوين الأكاديمي. وتدرجت الأسرة في ابتعادها عن البحر من صيد السمك إلى صيد اللؤلؤ ثم العودة إلى صيد السمك بعد انحسار اللؤلؤ ليستقر نشاطها بعد ذلك في تجارة المواد المستوردة. يقول السارد: "نشأ يحيى في أسرة تشتري الحرير وخشب العود من الهند، والزبيب والكشمير من أفغانستان، والعسل والبن من اليمن، والمعاطف الصوفية من إنجلترا، لكنها لم تكن كذلك منذ تكوينها، فقد عمل أهله

في الغوص المضني على اللؤلؤ، ثم انتقلوا إلى صيد السمك بعد انخفاض الطلب على اللؤلؤ الطبيعي لاشتداد المنافسة من الصناعي العصي على التمييز". (الحي الحي، ص ١٥٢)

إن المسح التحليلي للروايات محل الدراسة، يظهر التحول في المكان، في البحر الذي غابت عنه مشاهد الغوص وصيد السمك، حيث صار يعالج باعتباره إطارا مكانيا مختلفا أضفى تغييرا كبيرا في الشخصيات وفي المكان ودلالات كل العناصر السردية الأخرى، فقد تخلى السكان عن مهنة الصيد بعد اكتشاف النفط، وبنيت على أطراف الشواطئ منشآت وبنايات ضخمة أخفت الصورة التقليدية للبحر، ما أدى إلى ظهور مدن جديدة يصعب معها مائه وأمواجه، "فتضيق الرؤية من جوانب معينة، بل وتتقلص المدن والأحياء البحرية القديمة وتتراجع، إما عن طريق الدفن والتدمير أو عن طريق التشييد، أو أن تتحول إلى "مستوطنات أجنبية" للغرباء". (عبد الملك، ١٩٩٧)

على أن إرهاصات التحول الاقتصادي في سرد الروايات محل الدراسة ظهرت في تغير رؤية الشخصيات للبحر الذي أصبح يحمل دلالات ورؤى أخرى مختلفة. و"لأننا في الرواية لا نواجه فضاء خاما بمعنى الكلمة، وإنما أجزاء وعناصر منظور إليها بطريقة خاصة، فالرؤية هي التي ستمدنا بالمعرفة الموضوعية أو الذاتية التي تحملها الشخصية عن المكان وتحيطنا علما بالكيفية التي تدرك بها أبعاده وصفاته" (بحرواي، ١٩٩٠)، فقد أصبح البحر دافعا لولادة تطلعات جديدة ترسم معالم حياة أخرى أكثر أمانا أنتجها اكتشاف النفط وما أفرزه من ولادة مدن صناعية ووظائف جديدة.

وضمن هذه الرؤية، يظهر وعي "سلطان" في مسيرة تطوره النفسي ونضجه الاجتماعي عبر تطور الأحداث، ويقرر ألا يعود إلى البحر، وأن يقطع مع الماضي بلغة ثابتة مصرة على التغيير، ويقول بصوت واضح يمثل انفصاله عاطفيا عن البحر ووعيه بضرورة الانفتاح على الواقع الجديد بعيدا عن العدو الصديق الذي يجب التعامل معه بالابتعاد والهجر: "إن البحر بقدر ما يعطي فهو يأخذ الكثير..يسلب الراحة.. في

مقابل لقمة مقترة يقدمها لأصدقائه، أما أنا فلن أحب البحر وسوف أكرهه لأنني عرفت حيلة.. وعرفت كيف يجابه هذا الحبيب العدو. سأهجره إلى الأبد، وسأنأى عنه بعيدا، فهناك من ينتظرني على أحر من الجمر، المكتب العزيز والكرسي المخلص الذي يلف بي العالم بدون أن أجدف أو أرهق عضلات زندي ومن غير ما تقيئني أمواج بحر هائجة" (السيف والزهرة، ٩٤). "سأحرق القارب والشبك .. لن أحتفظ بذكريات الماضي" (السيف والزهرة، ص ٨٣)، ويواصل قائلا: "تبا لهذا الماضي اللعين". (السيف والزهرة، ص ١٠٧)

سبق هذا القرار في نفس "سلطان" رغبة دفينة وأمنيات تخلصه من الفقر والموت عنوانيْ البحر وقرينيه، فقد ظهر موجها كلامه ل"أبي صالح" و"خليفة" صديقي والده الذي قضى بمرض السل الذي سببه البحر وما كابده من متاعب في مواجهته من أجل أن يعيش هو وأسرته: "لماذا لا نتطلع إلى الدنيا بأعين أخرى غير أعيننا هذه التي لا ترى غير لزوجة الماء وزبد الموج؟.. الدنيا مليئة بالكنوز والخيرات.. الدنيا سخية معطاءة، ولكننا نحن الذين نعمي أبصارنا عنها، وندبر عن عطائها". (السيف والزهرة، ٩٠)

يغضب "أبو صالح" لكلام "سلطان" ويحاول أن يذكر الشاب بخيرات البحر، فيأخذ الحوار مهمة الكشف عن موقف "سلطان" الذي همس لنفسه بلغة تتسم بالإصرار وتطلع القارئ على طريقة تفكيره: "وقال في صمت: مابال هذين والبحر؟ لماذا يصران على البقاء في البحر، وأنا أدرى منهما به.. عرفت كيف يجرع البحر أصدقاءه الهم والغم.. ومن قال إنني سأرضخ لأقوالهما؟ أو أنني سأقبل العيش كما يقبله خليفة أو أبو صالح؟ من يترك البذخ الرباني ليعيش في دكان خليفة المتهاوي، أو مزرعة أبي صالح الخاوية..اتقوا الله في أنفسكم وتنبهوا لمصائركم.. الحياة تسير بسرعة فائقة، ومن لا يلحق بركبها ستدوسه عجلاتها بعنف، ستدوس جسده بلا رحمة.. أما أنا فلن تروعني هذه الأصوات المحمومة، ولن تخذلني نصائحكم المتخلفة". (السيف والزهرة، ٩٠)

بدأت التحولات في البنية الاقتصادية تظهر في أحداث الروايات وعلى شخصياتها وفضاءاتها المكانية بعد اكتشاف النفط الذي أصبح عمادا اقتصاديا جديدا وموردا طبيعيا ثمينا، ذلك أن الذي "يحدث هو أن تمر على شعب من الشعوب ظروف تدفع به إلى التحرك، والخروج من سكون البداوة إلى حركة الحضارة، وتكون هذه الظروف من صنع الطبيعة" (مؤنس، ١٩٧٨). ومع التطور الذي عرفته عوالم الروايات، وما عاشته الشخصيات من تحولات نتيجة انفتاحها على موارد اقتصادية جديدة، تزايدت مشاعر الخوف من البحر وتولدت مظاهر رفض المهنة التي ارتبطت به. وفي هذا السياق، وصلت الساردة في (رسائل عشاق، ص ١٠٤) إلى حقيقة انتهاء الفقر والحاجة وانقضاء الأحزان التي كان البحر سببا لها: "هذا الكائن الخرافي المزدحم بملحه وزبده ورمله وموجه وطينه وأناسه الأحياء فضلا عن الذين قضوا نحبهم، وهو أيضا سفر خالد وعنوان للتضحيات والإنجازات والانكسارات والخيبات التي ولى زمانها".

ويقوم الحوار في رواية (السيف والزهرة، ص ٩٣)، باعتباره الوسيلة السردية التي تعبر بها الشخصيات عن نفسها وتطلعاتها، بمهمة الكشف عن بواطن شخصية "سلطان" بعفوية متميزة تنطلق من انفراج نفسه ويقينه بأن الدنيا ابتسمت له ولأبناء قريته بعد حصوله على وظيفة في دبي وتدفق عائدات النفط على البلد: "صاح سلطان.. كلوا مما رزقناكم واستمتعوا بالخير الجزيل، طهروا معدتكم من روائح الأسماك، واغسلوا بطونكم عن التمر المسوس. لقم هانئة ستنهال عليكم، وأطعمة طازجة ستأتيكم من غير ما تدرون.. قولوا تبا للبحر وأهواله، وليسقط الخوف وحباله.. تقطعت تلك الحبال المشدودة على عنقي والمصلوبة بها أفئدتكم.. تحطمت الأغلال. وها نحن اليوم ندخل على الدنيا من أبوابها الرحبة ونطل على العالم من نوافذه الواسعة ".

ويعلن "سلطان" في حواره مع أمه انتهاء الماضي المثقل بالمعاناة وتجاوز مرحلة الحرمان والتجارب المؤلمة، ويدعوها إلى التحرر النهائي من الضعف والانكسار، ومقاومة الاستسلام لدخول المرحلة الجديدة:

"انفضي غبار السنين عن وجهك، وطهري عينيك بنور الحاضر، فقد ولت أيام الفقر، وها نحن نخوض مرحلة جديدة من حياتنا.. الحياة الجديدة لن ترضخ للخوف، ولن تستسلم لسهام الضعفاء لأننا أقوى من الخوف، وأعنف من الضعف". (السيف والزهرة، ص ٩٥)

يؤكد الحوار على مسيرة التحول والانتقال من مرحلة إلى أخرى، وعلى ضرورة التطهير ورؤية العالم من زاوية جديدة، ويمثل بهذا الإصرار رأي الجيل الجديد الذي عاصر صغاره وشبابه أول اكتشافات النفط وبداية التحولات المجتمعية التي نتجت عنه، فابتعد عن البحر باحثا عن مصادر أخرى للرزق تلائم المدنية التي ألقت بظلالها على التجمعات السكانية الجديدة، وعلى إنشاء المدارس والجامعات، يقول السارد في رواية "الحي الحي" متحدثا عن "يحيى" ابن سعيد الصياد الذي لم يبتعد عن البحر حتى بعد تخليه عن مهنة الصيد، لكنه كان يريد حياة لابنه مختلفة عن حياته وحياة أجداده: "وقد دأب أبوه على مناداته بالدكتور منذ التحاقه بالابتدائية، فرأت أمه في الإصرار على هذا اللقب إقصاء عن التجارة، وتحجيما مغلفا بالتشجيع، حتى تحقق ما أراد الأبوان؛ فالحصول على شهادة طب الأسنان كان بلوغ أقرب نقطة إلى جراحة القلب، فهي – أقله – تجيز لصاحبها وأهله الاستمتاع بترديد اللقب، وكتابة دال متبوعة بنقطة قبل اسمه، وفي تأسيس عيادته الخاصة ولوج لعالم التجارة وإنْ "من الشباك أو الباب الخلفي" كما يقول هلال. يحيى مخضرم على أرضه، فمواليد الخط الفاصل بين القحط وقيام الدولة التي ستصبح بعد عقود قليلة عاصمة الشرق الاقتصادية لم ينزلقوا على أرض من الزبد كما يظن من جاءهم متأخرا، كان أبناء تلك الحقبة يكبرون مع بلادهم". (الحي الحي، ص ١٥٧)

ولأن "البيئة الجغرافية التي ينشأ فيها شعب من الشعوب لها أثر كبير في الشكل الحضاري الذي ينشئه، لأن الإنسان يأخذ مادة حضارية مما حوله، والظروف الطبيعية التي تحيط به لها أعظم الأثر في حفز همته إلى العمل والإنشاء والابتكار، أو في تثبيط همته وحرمانه من كل تطلع إلى جديد" (مؤنس، ١٩٧٨)،

كان مبتدأ التحول الاقتصادي ما جادت به الطبيعة وما لفظه البحر والصحراء من الكميات الكبيرة من النفط، وما استتبع ذلك من نمو اقتصادي تحولت معه بنية الروايات إلى مجتمع سائر نحو التطور والتمدن بعد أن كان مجتمعا بسيطا يعتمد الصيد واللؤلؤ مصدرا للعيش، ويقنع بهما موردين طبيعيين يتناسبان مع بيئته، "أي أنه لم يندفع–أو لم تدفعه الظروف– في طريق الرقي المادي الذي لا نهاية له، بل نظم نفسه على نحو يتفق مع بيئته فيقنع بما فيه الكفاية من الطعام والشراب والأثاث وماعون البيت وأدوات الحياة" (مؤنس، ١٩٧٨). بدأت شركات التنقيب تستخرج الذهب الأسود من صحراء الإمارات وبحرها، وبدأ المجتمع البسيط يعرف بوادر الرخاء في دول الخليج المجاورة كدولة الكويت التي سبقت في مشاريع التنمية. يقول السارد في (لعلها مزحة، ص ١٦٦): "نعم .. في زمن الحياة ذاك، كان كل شيء يركز على أن تحوز على المادة التي ستعينك على العيش، أنت تسخر حياتك لذلك بشكل قاطع، كان السكان يظنون أن ما يسعون إليه من مواد أن بقاءهم مرتبط بذلك فقط، بما يلفظه البحر من خيرات، وما تقدمه اليابسة من فتات، ثم جاء زمن التنقيب عن النفط، ولا أظن أن الأمر اختلف كثيرا في مفهومهم البسيط الذي كانوا يتعاملون معه بشكل لا واع، هم ما يمتلكونه، حيازة النفط ستجلب لهم الرخاء الذي بدأت مظاهره ترى في "الكويت" مثلا".

لقد وظف كتاب الروايات محل الدراسة قدراتهم الفنية ومهاراتهم التعبيرية لخلق صورة الواقع الجديد وتشكيل مشاهده وتحريك شخصياته، ولتقديم البحر بوصفه مكانا ذا حكايات جديدة ورؤية مختلفة بدأت تتشكل ببدايات التحول الاقتصادي واعتماد البلد على موارد النفط وشركات التنقيب. أصبح البحر بطلا بتفاصيل متغيرة، وانتقلت الروايات من العوالم الضيقة المغلقة إلى الفضاءات الرحبة الممتدة التي شكلت فيها أماكن جديدة قاعدة محورية في السياق الروائي، فألحت عليهم صور الحياة في الشارقة ودبي وغيرهما من الفضاءات التي شهدت تنامي الأحداث وتصاعد خط سيرها وتحرك الشخصيات بين عالمين مختلفين فرقت

بينهما الطفرة الاقتصادية التي رسمت طريق الانعتاق من قيود الواقع القديم، والانفتاح على أسرار الواقع الجديد ودلالاته التعبيرية المتغيرة.

وسعيا وراء إبراز العلاقة بين التحول الذي عرفه المجتمع وانعكاسه المباشر على الشخصية، ستقدم الروايات صورة عن الوضع الذي انتهت إليه الشخصيات، ففي رواية "السيف والزهرة"، سيحصل"سلطان" على وظيفة في دبي، وسيمارس مهنة جديدة شكلت بوابة انعتاقه من واقع الفقر ورحلات الصيد المميتة. يقول السارد في (السيف والزهرة، ص ٨٥): "أعطاه المدير ورقة مختومة بخاتم الحكومة عند الذيل. قرأ فحواها كلمة كلمة. قلب الورقة. :"تم تعيين السيد سلطان بن خلفان مديرا لمركز التدقيق والبحث الاجتماعي"".

ويتدخل الحوار، ضمن التقنيات الروائية الموظفة في الرواية وبوظيفته في شحن المشاهد بالعاطفة، ليكشف عن مشاعر "موزة" أم "سلطان" بعد علمها بوظيفة ابنها ووعيها بخروج الأسرة من الفقر والحاجة والقلق المستمر على أرواح من يعيلها. تتفاعل الشخصيات في بيت "خلفان" وتتشارك الشعور نفسه، وتتحدث الأم بنبرة عاطفية تختلط فيها المشاعر بين الألم والأمل، وتدمع عيناها فرحا بالحياة الجديدة البعيدة عن البحر وذكريات الفقد والحرمان فيه: "حدجته موزة بعين غارقة بالدموع، وكانت مريم وزينب تنظران إليه بأعين امتلأت بالفرحة، في حين تقلب محمد مزهوا بالوضع.. تساءل سلطان في حيرة .. ما بك يا أماه تذرفين الدموع؟ أجابت موزة.. إنه دمع الفرح يا بني.. دمع أغسل به غشاوة السنين العجاف التي قضيتها بين أكفان الفقر والخوف، يلحفني الظلام ليلا، وتدثرني أشعة الشمس الحارقة نهارا.. وكنت أنتظر، ومساحة الانتظار أوسع من صدري بكثير، ولذا كنت أختنق في اليوم مرات ومرات. أعاني من مرارة الحزن والأسى، والأيام ترفع نصالها في وجهي، تغدقني بالضربات المؤلمة فأصبر، تبصق في وجهي فأحتمل، تلعنني فأنتظر". (السيف والزهرة، ص ٩٥)

وفي رواية "لعلها مزحة"، يشغل "مسلم" وظيفة شرطي في قوة شرطة الشارقة، ويزداد كرهه للبحر كلما وصلته رائحته من مكان عمله القريب وكأن ذاكرته ألفتها. تصف صالحة عبيد الانفصال العاطفي للشخصية عن الماضي، وتدرجها في التحرر من مشاعر القهر التي قيدتها لسنوات عديدة وحددت مصيرها المفروض قسرا بقوة الطبيعة والبحر وحياة الفقر والحاجة. وتظهر ذكريات البحر و"مسلم" في وظيفته الجديدة رمزا للضيق والخسارات المتكررة، بينما تمثل حياته الجديدة تحررا داخليا من ذكريات الماضي وهدوء نفسيا يجعله أكثر ثقة وحماسا. يقول السارد: "لكنه اليوم لم يعد يشعر بوجود ذلك الشيء القاهر الذي يحدد مصيره المرتبط بالماء، يقول لنفسه بأنه سيألف مكانه الجديد هذا ويحبه، لو أن فقط رائحة البحر القريب تختفي من هنا.. كم يكره البحر!.. لطالما كرهه، البحر الذي مزق القلوب، وزرع الانتظارات مرارا دون أي حصاد" (لعلها مزحة، ص ٢٤)، "وبدلا من أن يشعر بالضيق، كان يشعر بالسعة بأن رئتيه اللتين كانتا دائما أضعف وأضيق من احتمال ضغط الأعماق البحرية التي تم إبعادها عنها، قد أخذتا بالتمدد، لتسعا العالم". (لعلها مزحة، ص ٥١)

ويبتعد "يحيى" في رواية "الحي الحي" عن مهنة أبيه وأجداده، وبدل التورط في البحر ومهنة صيد السمك التي يتعاون فيها الصغار والكبار في قرى الصيادين، توجه نحو المدارس المنشأة حديثا. وقد ابتعد عن البحر وهو طفل صغير ضمن جيله الذي عايش بدايات التحول المجتمعي، ورفض البحر الذي كان إلى عهد قريب يمثل قدرا اجتماعيا يمارس الاستلاب والقهر على من يجود عليهم من خيراته بالقليل. يقول السارد: "وقد دأب أبوه على مناداته بالدكتور منذ التحاقه بالابتدائية، فرأت أمه في الإصرار على هذا اللقب إقصاء عن التجارة، وتحجيما مغلفا بالتشجيع حتى تحقق ما أراد الأبوان؛ فالحصول على شهادة طب الأسنان كان بلوغ أقرب نقطة إلى جراحة القلب، فهي – أقله – تجيز لصاحبها وأهله الاستمتاع بترديد اللقب، وكتابة دال متبوعة بنقطة قبل اسمه". (الحي الحي، ص ١٥٧)

أما الشخصية الرئيسة في "رسائل عشاق"، فقد تمكنت من تجاوز ظروفها العائلية التي تحد من طاقاتها وطموحها وتشعرها بالعجز والعار، واستطاعت بإرادتها في التعلم وبتمردها على الجاهز والمفروض مما صورته الرواية على أنه عادات وتقاليد أن تتعلم الكتابة والقراءة، وأن تفتح لها طريقا نحو نور العلم والمعرفة مكنها من حل لغز مشاعر الكراهية التي كانت تسود بيت العائلة تحت سلطة زوجة أبيها، وذلك من خلال الوصول إلى قراءة رسائل العاشقيْن؛ أمِّها وأخيها "سرور".

بهذه المقاطع السردية وما تتخللها من مشاهد الحوار والوصف، يقف القارئ على أولى عتبات الأحداث التي عاشتها الشخصيات في ارتباطها بالبحر، ووفرت النصوص المروية مؤشرات تجاه المكانية التي تعيش فيها، والتي تمثلت في بيئة بدائية فقيرة في العمران والصحة والراحة قياسا بحركة المدنية والتحضر التي عرفتها الشخصيات لاحقا بعد أن عاشت حالاتها البائسة اجتماعيا ونفسيا، ما جعلها تبحث عن أسباب هروب من الواقع الموروث بسلطته القهرية ومساراته السلبية المفروضة.

وقد كان انتقال الشخصيات في الفضاء والمكان الروائيين قدرا محتوما باعتبار طبيعة الموارد المتاحة في زمن الفقر والارتباط القسري بالبحر، وكذلك في زمن النفط والتطور الاقتصادي الكبير الذي جعلها تعيش حياة جديدة متغيرة تحول المستحيل فيها إلى ممكن والشقاء إلى سعادة، ذلك أن الوضع الإنساني للمجتمعات يتيح للفرد "أن يتعامل مع أشياء دون غيرها، وتتحول الأشياء لديه إلى: متاح وممكن ومستحيل بعيد المنال، ويحسب سعادته أو شقاءه أو حرمانه في الحياة بمقياس اقترابه من الأشياء أو امتلاكه لها وما يحرك رجل المدينة من أشياء يختلف عما يحرك رجل القرية" (الضبع، ٢٠٠٤). وبذلك تغيرت عوالم الروايات محل الدراسة اقتصاديا بفعل اكتشاف النفط وغنى عوائده، وانفتحت على فضاءات أوسع أطرتها الطفرة الاقتصادية وتطور الأسواق المالية وما نتج عنهما من تطور عمراني.

## ٤,٣ التحولات العمرانية

### ٤,٣,١ التجمعات السكانية والعمران قبل اكتشاف النفط

تضيء المدلولات الكامنة للنصوص الروائية المختارة مساحة اشتغال الروائيين التخييلي، وذلك من خلال انتقاء مكونات العيش اليومي المرتبطة بالحياة القروية البسيطة، وبالبيوتات الطينية التي مثلت مشتركا مكانيا للفضاء العام للحكايات قبل اكتشاف النفط والطفرة الاقتصادية والعمرانية التي نتجت عنه. وقد ارتبط المعمار البدائي البسيط بما وفره البحر من إمكانات عيش بسيطة وبقلة الموارد الطبيعية والأنشطة الزراعية البدائية في بيئة اقتصادية ضعيفة. ونتج عن ذلك تجمع الأهالي في مجموعات سكنية صغيرة غاب عنها الاستقرار المدني وحكمها النقص الكبير في رؤوس الأموال.

وفي هذا السياق، ظهر الطين والعريش والسعف رموزا مهيمنة في البناء الفني للروايات باعتبارها مكونات بنائية مشكلة للصورة المعمارية السائدة وعناوين توضيحية للمشتركات المكانية المؤثثة لبيئة السرد. كما لم تبتعد العوالم الحكائية في الأعمال المختارة عن استدعاء الذاكرة التاريخية لمجتمعات الروايات واسترجاع ما يمثل الهوية الثقافية المرتبطة بالعمران وطريقة البناء وتشكيل البيوتات وتأثيثها في مراحل تاريخية ساد فيها الفقر والحاجة وشظف العيش، ما يفسر ارتباط الشخصيات في وضعها اليومي بما كان قريبا من إمكانات.

تحيلنا تجربة علي أبو الريش الروائية، على مستوى الأبعاد النفسية للشخصيات في علاقتها بالمكونات السردية الأخرى، على واقع الفضاء العام للبيوت السكنية ومكوناتها البسيطة، وذلك من خلال توظيف الوصف باعتباره عنصرا روائيا أساسيا في البناء الروائي ووسيلة لتحديد المجال العام الذي تتحرك فيه الشخصيات. يقول "سلطان" في استدعائه للذاكرة التي ارتبط فيها المكان بملامح البساطة وفقر الموارد الطبيعية المستخدمة في بناء البيوتات الصغيرة، وهو في حالة حوار مع مديره حول العمالة الأجنبية التي تم استقدامها واختلف الناس حولها إن كانت ذا نفع للبلد أم أنها تمثل خطرا عليها. يقول بلغة حادة في

توصيفه للبيوت بكونها متهشمة مرتبطة بالقسوة والموت مقدما تبريرا أخلاقيا لقبول التغيرات القيمية التي فرضها التحول الاقتصادي والعمراني: "أتذكر شكل البلد قبل سنوات قليلة.. كانت خياما متهشمة، وبحرا يمضغ جثث الغائصين في جوفه الوفير.. فلماذا نغمض أعيننا عن الصواب ونفتحها على الأخطاء؟ لماذا نحارب التطور ونحن في أشد الحاجة إليه.. إنه ظلم في حق هؤلاء وفي حق البلد وفي حق أنفسنا". (السيف والزهرة، ص ١٠٢)

ولأن الوصف يساهم في بناء النص وإعطائه أبعاده الدلالية، فقد أحال من خلاله الكاتب على الخاصية الهندسية للغرف التي تميزت بالضيق وصغر المساحة، وذلك عبر المقارنة بين غرفة "سلطان" ومكتب مديره في دبي التي سارت فيها مظاهر التطور بوتيرة سريعة، حيث دلالة الحجرة الضيقة على محدودية المكان وانسداد الأفق، وما يحمله ذلك من دلالات الإقصاء والحرمان المادي والنفسي. يجد "سلطان" نفسه أمام المقارنة المتكررة بين عالمين متناقضين، عالم متآكل يشعر فيه بالدونية، وعالم نعيم جديد ينفلت في أحضانه من مشاعر القهر والفقر والحاجة. يقول السارد: "غرق سلطان مرة أخرى في هذا النعيم الذي يلتف حول صديق والده، بينما لم يحظ هو إلا بالحجرة الضيقة والفراش الرث، لا يستنشق منه غير رائحة الجدران المتآكلة". (السيف والزهرة، ص٦٠)

يتابع الوصف التقاط جزئيات المكان من خلال تصوير سقف الغرفة المبني بمواد بسيطة تشكل ما عمر به الإنسان الإماراتي بيته في مرحلة ما قبل النفط، "سقف الحجرة المهترئ" (السيف والزهرة، ص ٦٥)، الحجرة التي تتماهى في تفاصيلها مع شعور الشخصية وتعكس تفاعلها النفسي والحركي مع المكان، إذ "لا يمكن أن تدور أحداث رواية ما دون تصور مدلولات واضحة لأماكن الأحداث، وما تركه هذا المكان من أثر في بناء شخصيات الرواية، وفي اختيار نُظم علاقاتها وردود أفعال أبطالها". (جونيت، وآخرون، ١٩٨٩)

تضيق حجرة سلطان بالحزن، حيث يشعر فيها بالنفور ويرفضها حالما بغرفة عصرية مما يسمعه في بيوت دبي الناشئة، بينما "الحجرة الضيقة تختنق بالحزن" (السيف والزهرة، ص ٦٩) في بيته القديم. ولأنه من "الخطأ مثلا النظر إلى البيت كركام من الجدران والأثاث يمكن تطويقه بالوصف الموضوعي والانتهاء من أمره بالتركيز على مظهره الخارجي وصفاته الملموسة مباشرة، لأن هذه الرؤية ستنتهي، على الأرجح، إلى الإجهاز على الدلالة الكامنة فيه وتفرغه من كل محتوى" (بحرواي، ١٩٩٠)، فإن ذلك يفسر تأثير وجود الشخصيات على بناء المكان وانبناء معماره على المجتمع الذي أنتجه، ويعكس أيضا ضعف العمران وبداوته، حيث أنتج المجتمع البدوي البسيط معمارا بسيطا لا يتجاوز الحاجة والضرورة "لأن أول مطالب الإنسان الضروري، ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلا إذا كان الضروري حاصلا، فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة". (ابن خلدون، ١٩٨١)

ويزخر نص "لعلها مزحة" بقاموس عمراني يحيل على البيئة القاسية الملائمة لخصوصية الصحراء وقساوة البحر، حيث يضطلع السرد في هذا السياق بالحديث عن شخصية "مسلم" وعلاقته بعمه هلال بعد زواجه من أمه: بيتٍ مبني من العريش وجريد النخل المرصوص، فقد "كان مسكن غالبية الأسر من المساكن البسيطة، سواء من حيث البناء أو الأثاث، علاوة على أن الأدوات المستخدمة في داخله تعتبر من الأدوات الضرورية البسيطة لأداء متطلبات الحياة". (السدحان، ٢٠١٠). تربط صالحة عبيد بين مشاعر النفي وعدم الشعور بالأمان نتيجة الإبعاد القسري لشخصية "مسلم" عن أمه، وبين معاني الهشاشة والعزلة والإحساس بالظلم التي يمثلها البيت الفقير المعروش: "يوم نفي بسببه من غرفته الأثيرة إلى غرفة مجاورة في بيت معروش". (لعلها مزحة، ص ٢٧)

إن العمارة القديمة في الفضاءات المكانية المؤثثة للروايات لا تتجاوز كونها بيوتا تبنى بمواد طبيعية بسيطة من البيئة الصحراوية، والمنازل المعروشة هي ما شكل الفضاء الروائي للشخصيات في علاقاته بباقي

مكونات النص الروائي. تنقل صالحة عبيد، في وصفها شخصية "نجلاء"، بساطة البيت الذي تسكنه، وتؤكد ارتباط المكان بالشخصية التي تتحرك فيه وتتصالح معه، الأمر الذي أشار إليه (بحراوي، ١٩٩٠) في قوله: "إننا ننسى غالبا أن هناك تأثيرا متبادلا بين الشخصية والمكان الذي تقيم فيه، وأن الفضاء الروائي يمكنه أن يكشف لنا عن الحياة اللاشعورية التي تعيشها الشخصية، وأن لا شيء في البيت يمكنه أن يكون ذا دلالة من دون ربطه بالإنسان الذي يعيش فيه". يقول السارد: "لما دخلت إلى البيت المعروش بطبق "الجامي" المتعارف عليه في وقت عودة الرجال"، (لعلها مزحة، ص ٦١). ويقول في وصف المنزل الذي عاش فيه "مسلم" وزوجته "علياء": "لا شيء جوهريا يحدث بينهم هنا في هذا المنزل الطيني الصغير". (لعلها مزحة، ص ١١٠)

إن العمارة فعل مجتمع، تشهد عليه وتفسره، تماما كما يفسر المجتمع عمارته ويشرحها. وفي هذا الإطار، يشهد البناء العمراني للتجمعات السكنية في الروايات محل الدراسة على حياة البداوة، وعلى البنية المعمارية للبيوت الطينية المعروشة المناسبة للبيئة الصحراوية القاسية، فمن الشارقة إلى دبي، مرورا برأس الخيمة، قدمت النصوص الروائية خصوصية المعمار البسيط، عبر مؤشرات مكانية تجاه بيئة بدائية ضعيفة ونمط معماري يتأقلم فيه السكن مع البيئة القاسية ويتفاعل مع الظروف المناخية الصحراوية الحارة ومواد البناء المحلية البسيطة. ينقل علي الشعالي على لسان سارده صورة البيوت التي سكنها "سعيد الصياد" قبل التحول إلى اقتصاد النفط: "لقد عبرت عائلة "بن راشد" مع الناجين فترات الكساد العظيم التي نخرت عظام العالم بعد الحربين العالميتين. ثم بعد وفاة "بن راشد" وتقسيم الإرث، استطاع سعيد أن يكون مجموعة تجارية لها وزن. سكنَ الخيام، وبيوت العريش، والبيوت الطينية، إلى أن شيد لأبنائه التسعة فيلا فسيحة، مكسوة بالحجر الطبيعي، مطلة على شاطئ جميرا". (الحي الحي، ص١٥٢)

وتصف "فتحية النمر" في (رسائل عشاق، ص ١٦) الحياة الاجتماعية في القرية، حيث يمثل البيت الذي وُلدت فيه الشخصية الرئيسة جزءا من حالة جماعية تعاني التهميش والإقصاء، ويتقاسم مع باقي البيوت مظاهر الفقر والقدم والتقشف وغياب الحد الأدنى من مقومات الحياة الكريمة، بيوت منهكة مهمشة في قرية منزوية تعيش واقعا عمرانيا هشا وفقرا جماعيا ممتدا في الزمان والمكان: "هذا الكوخ بأثاثه الفقير الذي لا يزيد إلى جانب الحصيرة على فراش للنوم ومخدتين من القطن وربما الخيش أو مواد أخرى، وفي ناحية منه يرى موقد وبعض القدور المدهونة بالرماد وملاس وسكين وعلب من المعدن الصدئ"، ويشكل بيت "أبو سرور" مع مجموعة بيوت أخرى ملامح قرية فقيرة يمثل معمار فضائها البيتي "في المجمل حوالي عشرة أكواخ أو اثني عشر كوخا متناثرة في الفضاء الرملي الشاسع بمحاذاة البحر الممتد بسخاء ومهابة على الساحل الغربي من الخليج العربي للشارقة" (رسائل عشاق، ص ١٦)، في قرية "غارقة في الظلام منطبقة من ركن منزو من أركان بيت محمد بن أحمد الطيني الحقير كسائر البيوت آنذاك". (رسائل عشاق، ص ٣٨)

ظهرت البيوت في الروايات محل الدراسة بيوتا ضعيفة لا قدرة لمواد بنائها البسيطة على مواجهة عناصر الطبيعة القاسية التي تستبيحها عبر التسلل من ثغرات الجدران والأسقف الطينية المعروشة، "ويمكن القول إن الحياة السكنية لأفراد المجتمع كان يغلب عليها البساطة في مظاهرها العمرانية بدءا من البناء وحتى الأثاث المنزلي، فلقد كانت طريقة البناء متماشية مع ظروف العصر وخاماته، فالمنازل طينية أو حجرية يراعى فيها أن تكون ساترة من الخارج منفتحة على صحن الدار من الداخل" (السدحان، ٢٠١٠). ولا يعني كونها ساترة من الخارج أنها توفر الحماية من المطر أو الرياح.

تصف فتحية النمر أنين الرياح واختراقها بيوت القرية الهشة وبيت "محمد" الذي كان يشهد مخاض "علياء": "كان ذلك في الهزيع الأخير من الليل والسماء المدلهمة والساخطة تهطل مطرا مدرارا متواصلا لم

يتوقف منذ أيام مصحوبا بعصف الرياح وأنينها المرعب، وهي لا تكف عن جلد الغيوم، تفرقها، وتشتتها، وتمزقها. فتخضع لسيطرتها وسطوتها، ولكنها سرعان ما تفر عائدة إلى عهدها الأول من التكاثف والتداخل، تلك الرياح التي كانت تستغل كل ما في السقف والجدران المصنوعة من الجريد والسعف والخوص من ثغرات، وهي كثيرة على كل حال، وتنشر بامتداد الكوخ محل الحدث الساخن، لقد كانت موسيقى الرياح تبعث أصواتا مبهمة ومفزعة". (رسائل عشاق، ص ١٥)

ولم يكن وقوف الساردة على تفاصيل بيت "أبي سرور" مجرد انشطار سردي، بل ترجمة لما علق في ذاكرة الروائية من صورة للبيت القديم، حيث أضفت عليه مجموعة من المحمولات الوصفية التي تشكل النسيج الدلالي لبنيته المكانية المرتبط بالمواد البسيطة التي بني به كباقي البيوتات في القرية، وبهشاشة الحياة الاجتماعية التي تعزز الشعور بالقلق الدائم وعدم الأمان داخل البيوت. تقول الساردة: "الحقيقة ليس في بيتهم سوى حصيرتين، واحدة في غرفة نومه، وواحدة في غرفة نوم الولدين، فيما لم يكن الحوش – وهو المكان الذي يقضون فيه أغلب أوقاتهم – يحتوي على أي من الحصر والتكي والمساند التي لاحظ تداولها في بيوت غيره من الصيادين الأوفر حظا". (رسائل عشاق، ص ١٨٣)

تستمر "فتحية النمر" في وصف حالة البيوت في قرية الصيادين، وتكشف مشاعر "أبي سرور" حين دخوله بيته البسيط بعد عودته من رحلة بحرية في زنجبار، حيث سينتقد المكان بلون بابه الباهت وبنائه العشوائي الفقير، وكأن الشخصية تدخل حالة وعي مرتبط برؤية الآخر، فترفض واقعها وتغير نظرتها للمكان، تقول الساردة: "أدخل سرور يده في جيبه، وأخرج المفتاح، ودسه في القفل، فانفتح الباب الخشبي الذي آل لونه إلى الرمادي الباهت، ودخلوا الحوش الذي كان أول من صافحهم من معالم البيت العتيق الذي بدا لعيني محمد بن أحمد صغيرا للغاية للمرة الأولى في حياته الطويلة، وأن المواد التي بني منها فقيرة وخلطت بمقادير عشوائية غير دقيقة أو مرتبة". (رسائل عشاق، ص ١٧٦)



UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

إن "الحضور الإنساني في المكان يعتبر عاملا أساسيا في مقروئية النص موضوع الفضاء الروائي، فالمسكن مثلا لا يأخذ معناه ودلالته الشاملة إلا بإدراج صورة عن الساكن الذي يقطنه وإبراز مقدار الانسجام أو التنافر الموجود بينهما والمنعكس على هيئة المكان نفسه وجميع مكوناته" (بحراوي، ١٩٩٠)، وهذا ما يفسر انسجام حياة الفقر والحاجة مع شكل البيوت وافتقارها لما يعتبر ترفا في بيئة فقيرة تكتفي بالضروري، وتتماهى فيها الحالة النفسية للشخصيات مع البيت الذي تسكنه، حيث "من اللازم أن يكون هناك تأثير متبادل بين الشخصية والمكان الذي تعيش فيه أو البيئة التي تحيط بها" (بحراوي، ١٩٩٠)، ما يجعلها تفكر في مغادرته بعد أي تغير مادي أو معنوي. وفي هذا السياق، تنقل رواية "رسائل عشاق" معاني التنافر الذي بدأ يحكم علاقة الأهالي ببيوتهم القديمة بعد التحولات المجتمعية، حيث تقول الساردة وهي تحكي حدث خطبة "حصة": "كل هذا وحصة صاحبة الشأن تتظاهر بالتردد واللامبالاة المنفرة حيال الأخبار السعيدة التي تأتي بها صباح مساء في كل مرة، حيث تجلس متربعة على الأرض في الحوش الرملي، الذي صار لونه رماديا بمرور الزمن وضئيلا في الكثافة، تلك الرمال التي امتصتها الرطوبة كعلامة على أن البيت لم يعد صالحا للسكن الآمن، وأن علينا مثل غيرنا أن نفكر في إيجاد مسكن بديل". (رسائل عشاق، ص ١٣)

وضعت الروايات إطارا موحدا تقدم في نطاقه مكونات الفضاء البيتي على صورة بيوتات من الجريد والسعف والطين وتأسس بنية المنازل بهندسة معمارية موحدة تحقق لعوالمها وجودها المكاني المحيل على عمران بدائي سابق للتحضر، مكتف دلاليا بما وظفه الروائيون من تقنيات فنية، وممتد إلى الواقع الإماراتي باعتبار واقعية الأماكن والتواريخ، ذلك أن "مما يلاحظ في الفترة السابقة لاكتشاف النفط هو غلبة الحياة البدوية على عامة الناس، ويقسم الكتاب الاجتماعيون المجتمع في تلك المرحلة إلى فئات، منها عدة فئات أخذت أسماءها من واقعها الاقتصادي كالبدو الرعاة العاملين في الرعي، والبدو أشباه الرعاة، وهم رعاة

وجناة محصول عند نضوجه، والحضر القرويين الذين يعيشون في القرى ويعملون في زراعة الأراضي، والحضر الذين يعيشون في المدن وأشباه المدن ويعملون في التجارة والحرف، ومن المؤكد بحكم طبيعة الحال أن البدو أكثر عددا من الحضر، وذلك قبل أن تشهد البوادي حركة نزوح أشبه ما تكون بالتفريغ السكاني منها إلى مناطق إنتاج النفط والتجمعات الحضرية الرئيسة، في حين نجد هناك من لا يفرق كثيرا بين فئات مجتمع تلك الفترة، فالسكان ينتمون إلى مجتمع مزدوج وخليط من البداوة المتأثرة بالبيئة الحضرية، وبيئة حضرية متأثرة إلى حد ما بالبداوة ولم تكن حضرية محضة تتصف بخصائص الحياة الحضرية، وعلى كل حال فالصفة الغالبة على المجتمع بعمومه أو غالبيته في الفترة السابقة أنه أقرب إلى الحياة البدوية من الحياة الحضرية أو من التحضر". (السدحان، ٢٠١٠)

### ٤,٣,٢ التحول العمراني

شكل العامل الاقتصادي سببا رئيسا في التحولات الأولى التي عرفها المجتمع الإماراتي بعد اكتشاف النفط، ذلك أن "البناء الاقتصادي مسؤول عن التطورات والأحداث التاريخية، وعن توجيه عمليات التغير الاجتماعي في المجتمع" (فرح، ١٩٨٧). وقد ظهرت أولى تجليات التحول الاجتماعي المدفوع بهذا العامل في الجانب العمراني وهندسة البيوت، حيث الانتقال من البيوت الطينية البسيطة إلى البيوت المتطورة المجهزة بوسائل الراحة في الأحياء الجديدة الواسعة، بما يعنيه الانتقال أيضا من معاني الانفتاح والانعتاق من الفضاءات الضيقة التي تعبر عن الانغلاق وعدم القدرة على التفاعل مع العوالم الخارجية.

وقد حفلت الروايات محل الدراسة بمشاهد تصوير هذا النوع من التحول عبر مقاطع سردية متعددة أثثت الفضاء الروائي. تنقلنا صالحة عبيد في مسيرة بناء نصها الروائي، وعبر تقنية السرد المدعومة بالوصف إلى الحي القديم الذي سكنته "ميرة" في طفولتها المبكرة، والذي رحلت عنه العائلة كما باقي سكان القرية.

ويتضح التحول السريع في حديث الشخصية من الماضي التقليدي البسيط إلى الحاضر المتغير والأحياء المتطورة المأهولة بالسكان. وتحضر الذاكرة في صراعها مع المكان المتغير، المكان الذي شهد ذكريات البدايات البسيطة وأصبح رمزا للاغتراب المكاني عبر توظيف وجه الجدة والبرقع برمزيته الثقافية وبإحالته على الوجوه الغائبة رغم المحاولات اليائسة للإمساك بالماضي. تصف "ميرة" ارتباطها العاطفي بالماضي والتردد الأول بين مشاعر الحنين للقديم وواقع التغير العمراني والاجتماعي السريع: "في الحي المأهول بالسكان، منذ فترة يسيرة، حي أول الحياة وأول المفاتيح، أتذكر تفاصيله كلها.. إلا شيئا واحدا هو وجه الجدة، الذي يطل الآن غائما.. غامضا وغريبا.. مهما حاولت.. أقلب "برقعها" بين يدي، وأفكر في الوجوه التي غابت خلفه". (لعلها مزحة، ص ١٥)

كما تبدي "ميرة" في لحظة تأمل طفولية اندهاشا بتفاصيل الحي الجديد ومظاهر الحداثة في شوارعه وبيوته، حيث يمثل في تركيبه أول عتبة للعالم وبداية وعي أهله بالمكان الذي تصفه بالغرابة والدهشة كونه يجمع مظاهر الحداثة ومكونات التراث المتمثلة في براقع الجدات وسجاجيدهن: يقول السارد: "فيما الحي المسفلت حديثا في ذلك الوقت، يجعلني أرى أول عتبة للعالم على هيئة لوحة فلكلورية غريبة أيضا، الإسفلت والبيوت المصطفة على جانبي الشارع وسيدات الساحل على امتداد الجانبين، ببراقعهن، وسجاديدهن الملونة". (لعلها مزحة، ص ١٥)

وفي سياق التحول العمراني دائما، وتطور البيوت وهندستها، وظهور الأحياء الجديدة التي تبتعد عن البحر لتجد فضاءات أوسع للمباني الضخمة، يستمر السرد بنقل المشهد التأملي للشخصية واستدعائها للماضي وبيوت الخمسينات والستينات بما ترمز إليه من البساطة والارتباط الحميمي بالساحل. يحكي السارد رفض الجدات حداثة الأحياء باستحضارهن البحر كتعويض رمزي لفقدان الهوية والانتماء وحاجتهن للأفق الواسع الذي ضيقه التحول العمراني السريع. ولإضفاء الطابع التأملي على السرد، وظفت الكاتبة

تقنية الاسترجاع لتفتح للقارئ نافذة على الماضي عبر ذاكرة الشخصية التي انفصلت عن مكانها الأول. يقول السارد: "اليوم وأنا أسترجع تفاصيل بيوت الخمسينات والستينات الميلادية.. المتاخمة للساحل، أفهم أنهن كن يرفضن الإسفلت والإسمنت الذي جاء لاحقا على طريقتهن الخاصة.. لقد كن يستجلبن البحر الذي ابتعد كما ابتعد كل شيء، يوم راحت المباني تتضخم فجأة.. والأحياء تكثر.. حاجبة عنهن وجه ذلك الأزرق". (لعلها مزحة، ص ١٦)

شكل الوضع الجديد الذي ميزه هجر السكان لبيوتهم القديمة دافعا ل"مطر" ليتساءل حول البيوت الجديدة التي مازالت في طور البناء، ويقف السرد عند لحظة تأمل جديدة ترى في الحي الجديد مكانا بلا روح وتتحول معه الصحراء إلى رمز للضياع في مقابل البحر الذي يمثل الحياة والهوية والانتماء للجذور، يقول السارد: "يتذكر منزل "ميرة" الجديد، المرات التي رافقهم فيها لاستكشاف مكانه، كان المكان خاليا من المعالم في المرة الأولى، بأفق أصفر ممتد، صحراء، أخيرا كتلك التي عبرها سندباد مع علاء الدين وعلي بابا، مع العصفورة ياسمينة، عليهما أن يعثرا فقط على وكر "الجني الأزرق" لتعود ياسمينة فتاة من جديد، يتذكر أن "ميرة" الصغيرة وقفت تبكي فجأة بعد أن خططا لرحلة الصحراء والكنوز، وأنه عندما سألها عن السبب، قالت "سيبتعد البحر أكثر". (لعلها مزحة، ص ٩٧)

وظفت الكاتبة التناص باستدعاء "مسلم" الحكايات الشعبية ورحلة سندباد في الصحراء الصفراء الممتدة التي تشبه ما رأته الشخصية من قفر وخواء مادي ونفسي في الحي الجديد الذي تستعد عائلة "ميرة" للانتقال إليه، وما يحمله من دلالات الاغتراب والتيه في الفضاء الجديد. ويحضر صوت "ميرة" الذي يمثل صوت الطفولة التي تدرك بفطرتها مرارة الفقد وعناء الارتماء في عالم جديد متحول وبيوت تجسد الفراغ العاطفي والمستقبل الغامض. تقول بشعور داخلي مشوش وإحساس بالخوف من العزلة والاغتراب في الحي الجديد: "كان رحيلنا مربكا بقدر ما كان وادعا في ظاهره، الحي المترفع هنا فيما يشبه الصمت الدائم،

والبيوت الضخمة التي تكاد تشعرك لشدة سكونها أن لا أحد يقطنها، حتما على أن أتمرن على نظامنا الجديد". (لعلها مزحة، ص ٧١)

وينقل السرد في محكي رواية "الحي الحي" صور البيوت الجديدة التي نتجت عن التحول الاقتصادي والطفرة العمرانية، ومنها بيت "يحيى" الذي يعد إنجازا معماريا في الحي النابض بالحركة والحياة، الحي الذي يضم أعلى برج في العالم، وقريبا منه النخلة الفولاذية الصناعية، رمز الحداثة والتطور العمراني. يقول السارد واصفا بيت "يحيى": "في تلك الأحياء التي تعتاش على التكنولوجيا والأضواء، يقطن الدكتور يحيى سعيد الصياد الذي يرجع قبيل غروب الشمس إلى بيته المطل على الساحة التي تعج وتضج، مقصد السائحين، وكعبة المتنزهين، إنها إحدى المساحات المحيطة بالنخلة الفولاذية الباسقة وسط المدينة". (الحي الحي، ص ٨). ويقول وهو يحكي موعدا له بأصدقائه قريبا من بيته: "في انتظار أصدقائه، يرتشف القهوة بتلذذ، يسند ظهره ويطقطق رقبته وهو جالس جوار أعلى مبنى شيده البشر، صرح يقع على مرمى حجر من بيته ذي الكتل والقواطع الممتدة في الهواء بجرأة، شيده احتفالا بنجاحاته". (الحي الحي، ص،٦٢)

ويضطلع الوصف بتحديد تفاصيل هندسة بيت "يحيى" الذي صمم على شكل الحرف اللاتيني ($H$) برمزيته المباشرة للنموذج الغربي في الهندسة والتخطيط المعماريين، وبرؤية حديثة متطورة لتقسيم المساحات في البيت بناء على الوظيفة ونوع الاستخدام وخصوصية أفراد الأسرة. صمم البيت على الطراز العمراني المتقدم ليحتوي أفراد الأسرة النووية بمساحة مخصصة للقراءة ومشاهدة التلفزيون وأخرى متعددة الاستخدامات. يقول السارد: "يصعد إلى الطابق العلوي متوجها إلى رأس الضلع الأيسر من بيته الذي يحاكي من منظور رأسي الحرف اللاتيني $H$، شكل مثالي لديموغرافية أسرته الصغيرة، جناح الأبوين وجلسة القراءة والتلفزيون تشغل الطابق العلوي من الضلع الأيسر، أما حجرات الأبناء الثلاثة والغرفة متعددة الاستخدامات فأعلى الأيمن". (الحي الحي، ص ١٥)

ويستمر السرد في تقديم مشاهد التحول العمراني في مدينة دبي وعرض الثراء المعماري الحديث عبر تصوير سيرورة الانتقال عبر أنواع البيوت المختلفة التي سكنها "بن راشد" وأسرته، حيث انتقل من الخيام إلى بيوت العريش ثم البيوت الطينية التي بدأت مع مرحلة الاستقرار، ومع الطفرة العمرانية، يعيش "بن راشد" ذروة التطور العمراني حين سكن فيلا فاخرة في حي "جميرا" الذي يعد من أفخم الأحياء في دبي، وتمكن من إنشاء مشروع تجاري كبير، و"أن يكون مجموعة تجارية لها وزن. سكن الخيام، وبيوت العريش، والبيوت الطينية، إلى أن شيد لأبنائه التسعة فيلا فسيحة، مكسوة بالحجر الطبيعي، مطلة على شاطئ جميرا". (الحي الحي، ص،١٥٢)

ويمتد التطور العمراني ليصل إلى الشوارع والأبراج والمحلات التجارية، فتعرف دبي بالترف العمراني والحداثة المعمارية العالمية، حيث تضم "أفخم كيلومتر مربع على وجه المعمورة" (الحي الحي، ص ١٢٧). وقريبا منه شارع جميرا الذي قدمه علي الشعالي باعتباره نموذجا لنمط الحياة الجديد القائم على نموذج عمراني استهلاكي متعدد الثقافات. يقول السارد: "يمتلئ سريعا بالمطاعم التي تقدم مطابخ العالم، والعيادات التخصصية، ومراكز التجميل، ودور الموضة والديكور، ومشاريع محلية طموحة لخياطة الملبوسات الرجالية والنسائية، وواجهات لمعارض المفروشات الممهورة بالتواقيع". (الحي الحي، ص ١٢٨)

يلتقط الوصف في رواية "رسائل عشاق"، وفي سياق عاطفي اجتماعي، جزئيات البيت الجديد الذي سكنته عائلة "أبي سرور" والذي يمثل التحول العمراني من البيت البسيط التقليدي المرتبط بالبحر إلى البيت الحديث والنمط المعماري العصري، من المواد الطبيعية إلى المواد الصناعية الحديثة. تحكي الساردة حدث خطبة "حصة" والعروض الاجتماعية التي بدأت في البيت القديم واستمرت بين جدران البيت الحديث بسياقه المختلف في المكانة الاجتماعية والاقتصادية: "لقد تقدم لها خيرة شباب القرية والقرى المجاورة، بداية الترويج لهذا العرض اتخذت من بيتنا القديم المستلقي جنب بيوت كثيرة على ظهر البحر

العظيم مسرحا لها، وبقية من العروض توالت في بيتنا الحالي المشيد من الطابوق والإسمنت والحجارة الملونة على خلاف الأول الذي كان من الطين والمدر وأحجار البحر" (رسائل عشاق، ص ١٣). وينتقل الوصف، في بنائه للغة الرواية وتصويره للأشياء الحسية، إلى تقديم هندسي دقيق للمكان الذي تحولت فيه البنية المادية للبيت وتطورت فيه وسائل الراحة والتقنية الحديثة في انتقاله من الضروري إلى الترف والراحة والترفيه. تقول الساردة: "بيوتنا الحالية فيها كل وسائل المعيشة المريحة والجيدة من الغرف المتعددة والواسعة والمزودة بالكهرباء والمكيفات والتلفزيون والتليفون". (رسائل عشاق، ص ٤٦)

تغيرت مساكن الأهالي وتطورت المدن لتخرج عوالم الشخصيات وفضاءاتها من البداوة إلى التحضر، ومن البيوت البسيطة إلى العمران المتطور، ذلك أن "طور الدولة من أولها بداوة، ثم إذا حصل الملك تبعه الرفه واتساع الأحوال. والحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله، فلكل واحد منها صنائع في استجادته والتأنق فيه تختص به ويتلو بعضها بعضا وتتكثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعم بأحوال الترف وما تتلون به من العوائد". (ابن خلدون، ١٩٨١)

وقد قدمت الروايات محل الدراسة صورة لنشأة المدن وتطور العمران نتيجة تفاعل السكان مع بيئتهم بفعل التطور الاقتصادي والنمو السريع لمشاريع البنية التحتية والأنشطة الصناعية، ما أدى إلى زيادة الطلب على السكن وظهور الأحياء الجديدة بنظام متطور سريع غير من المشهد العام لخريطة العمران. ينقل أبو الريش صورة التغير الشامل في البنية المادية والاجتماعية للمدن التي ارتدت ثوبا جديدا يناسب الحداثة العمرانية ويكسبها هوية بصرية جديدة، حيث يظهر الارتباط بين العمران والهوية، وتغير الناس وتبدل أحوالهم بتبدل بيوتهم وتطور ملامح المدن التي سكنوها. يحتد النقاش في ديوانية "أبي صالح" حول العمالة الأجنبية وتهديدها لأمن السكان، وينتفض سلطان" في انفعال وجداني شيع به الجالسين في الديوانية

بنظرات متوجسة تنم عن عدم قبوله الرأي الذي يتخوف من التطور العمراني والاجتماعي: "انتفض صدر سلطان، استيقظ شريان في أعماقه كان أخمد حراكه.. شيع الجالسين بنظرات متوجسة، أخذ يطرطق أصابع يده، ويحك صدغه.. أجل.. كل شيء تغير، الناس تغيروا، البيوت تغيرت، الشوارع، المنازل، كل هذه ارتدت هنداما جديدا، وهذا هو المطلوب". (السيف والزهرة، ص ١١٩)

إن كل تحول عمراني يستدعي حركة سكانية نشطة من القرى إلى التجمعات الحضرية الجديدة، ما ينتج زيادة في عدد السكان، وهو ما عرفته مدن الإمارات من خلال الإحالة في الروايات محل الدراسة على أماكن واقعية بأسمائها، "ولاشك أن أسباب ذلك التزايد في عدد السكان في المدن الخليجية بشكل عام يعود إلى جملة من الأسباب يمكن إيجازها في الجوانب الآتية، مع ملاحظة أن تزايد عدد السكان يستلزم بالضرورة توسع المدن ونموها: أ- العوامل الاقتصادية والتحسن في المستوى المعيشي للسكان، بعد اكتشاف البترول وتوجه الدول الخليجية إلى تحقق الرفاهية الاجتماعية لمواطنيها، فضلا عن اتجاه خطط التنمية الوطنية لكل دولة نحو التصنيع، الأمر الذي يعطي التنمية طابعا حضريا وليس ريفيا، وهذا أدى إلى النزوح إلى المدن والاستقرار فيها". (السدحان، ٢٠١٠)

في سياق هذه الرؤية، وبالنظر إلى تعريف ابن خلدون للمدينة بكونها "مواضع محصنة تستعملها الأمم التي وصلت إلى غايتها المطلوبة من الحضارة والترف" (ابن خلدون، ١٩٨١)، وأن "وجود المدن والأمصار من عوائد الترف والدعة التي هي متأخرة عن عوائد الضرورة المعاشية" (ابن خلدون، ١٩٨١)، تطورت مدينة العين في مشهد نقلته فتحية النمر، حيث تقول الساردة في خطاب استعراضي تنسجم فيه الهوية البيئية المتمثلة في النخيل والتخطيط العمراني المتطور الذي جعل المدينة تنافس مدينة البصرة ضمن الإنجازات الحضارية للشيخ زايد: "أعرفكم على ملامح المدينة المليئة بالمزارع والمزدحمة بالنخيل، هذه المدينة التي حولها الشيخ زايد إلى واحة خضراء رائعة لا مثيل لها، تفوقت بفتنتها وسحرها على البصرة العراقية التي

كانت مثالا للجمال". واسترسلت البنت في حديثها قائلة: "فضلا عن الجو اللطيف، حيث الهواء العليل الخالي من رطوبة، فإن منظرها يسر الروح ويبهج العين، أجواء لم تعتادوا عليها يا أهل البحر والحرارة الشديدة والرطوبة المزعجة". (رسائل عشاق، ص ٢٠٣)

وتستمر الساردة في اعتماد الوصف الذي يشكل صورة ذهنية لدى القارئ عن طريق بناء عناصر الإطار المكاني والزماني، وتحكي نقاشا تم في السيارة التي مثلت نافذة على مشهد خارجي حديث يظهر التكامل بين عناصر الطبيعة والعناصر العمرانية الذي ميز المنظر العام للمكان. ويظهر انشغال الشخصية بالمشهد الخارجي تأثير التطور العمراني في وجدانها وانفعالها الروحي بالتوسع العمراني المفتوح على امتداد الأفق. تقول الساردة: "كنا في طريقنا إلى مدينة العين على متن السيارة "الجيب" التي كانت تختض باختضاض الطريق، والتي كانت مملوكة لذوي الصديقة العزيزة التي تكبدت المرور بكل واحدة منا، وأخذها من بيتها بتوصية من الصديقة المزورة... واليوم، ونحن في السيارة، وجدتها فرصة سانحة، فأعادت طرح الموضوع، وراحت تحبب إلي عمها، وتلمع صورته واصفة أخلاقه بالمميزة التي لا مثيل لها، وكانت تتعمد قطع حديثها بين كلمة وأخرى، لترمي ببصرها للطريق العام والسيارات والأشجار والنخيل الشاهق بصفة خاصة، وتحدق في المساحة الخضراء الموزعة على امتداد الأفق". (رسائل عشاق، ص ٢٥٢)

تحول شكل الأحياء من نمط البيوت المتلاصقة في الأحياء القديمة إلى نمط جديد يقوم على التباعد بين المنازل وعلى الشوراع الواسعة بدلا من الأزقة الرملية الضيقة، ما يدل على تطور عمراني مدروس ومخطط وفق المعايير الحديثة التي وفرت انتقالا سريعا وواضحا من بنية عمرانية بدائية إلى بيئة حديثة تراعي الجانب الجمالي وتساهم في بناء هوية مكانية جديدة. تنقل فتحية النمر عبر خطاطة وصفية ترسم ملامح المدينة الجديدة: "البيوت الحالية ليست متلاصقة كثيرا، بل هي متجاورة ومتباعدة، وقد حلت محل الأزقة الضيقة الرملية القديمة شوارع مسفلتة واسعة مزينة بالأشجار والأضواء واللوحات الإرشادية و"الدواوير" المختص

كل منها بعلامة بارزة، على سبيل المثال هناك دوار النافورة، ودوار النخلة، وأشهرها هو دوار الساعة". (رسائل عشاق، ص ٢٠٧)

على أن بدايات التحول على مستوى البيوت والعمران وتطور البناء واختطاط المنازل الذي "هو من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف والدعة" (ابن خلدون، ١٩٨١) عرفت مشاعر رفض وتخوف ممن عاصروا هذه البدايات واعتادوا الحياة البسيطة وبيوت العريش المتاخمة للبحر، والمتماهية مع ما وفرته البيئة المحيطة من موارد، رفضت "فطيم" ترك البيت القديم بمعناه الرمزي العاطفي المتمثل في الارتباط الوجداني بالبحر والبيوت القديمة التي تمثل الهوية الثقافية والاجتماعية لقرية الصيادين، لكنها أكرهت على ذلك مع ما فرضه واقع الانتقال العمراني المتطور. تقول الساردة: "وقبل كل شيء كانت رافضة باستماتة الانتقال من القرية القديمة إلى الحي الجديد، لكنها أكرهت على ذلك؛ لأن البيت الأول استحال إلى خرابة، وغدا خطرا عليها وعلينا". (رسائل عشاق، ص ١٦٤)

وبسبب الارتباط بالبحر وبشكل البيت القديم، تختار "فطيم" من البيت الجديد أصغر غرفة فيه لأنها فقط تستطيع من خلال نافذتها رؤية أطلال البيوتات التي كانت تمتد على طول البحر. تحكي الساردة لحظة الانفعال العاطفي التي عاشتها الشخصية بعد دخولها البيت الجديد، وكيف اختارت منه ما يبقيها مرتبطة بالماضي ورائحة البحر، وهو تعبير عن رفض غير معلن للتحول العمراني وما قد يتبعه من تغيرات أخرى تمس العلاقات الاجتماعية وتنفي الذاكرة والماضي والهوية: "حين انتقلنا للبيت الجديد، أذكر أنها وجدت نفسها أمام ثلاث غرف، واسعة المساحة ومتوسطة وصغيرة جدا، كان بمقدورها أن تختار الأوسع باعتبارها صاحبة البيت لكنها اختارت الصغيرة، وصاحت: "سآخذ هذه الغرفة". لقد اختارتها لأن نافذتها مطلة على الشارع من جهة، وعلى فضاء خال من الجهة الثانية، فضاء يذكرها بالبحر، وتابعت القول بأنها لا تزال تحيا في الماضي متعلقة بكل صوره وذكرياته، حيث كانت ترى أن هذه هي الحياة الحقيقية الجديدة

بالتعظيم، وأن كل ما سواها كلام فارغ؛ لذلك كانت تطلق العنان أمام تلك الذكريات للانسكاب والتدفق مستعيدة طيف بيتها القديم حين كانت ملكة على العرش، تقطن أكبر غرفة في القرية كلها، تلك الغرفة المطلة على البحر. غير أن هذا كله قد ضاع وتبخر في غمضة عين، ولم يبق منه غير الأثر، فكيف تجد فسحة للفرح؟" (رسائل عشاق، ص ١٠٧)

ولأن العمران فعل اجتماعي يشرح المجتمع الذي أنشأه، فإن التحولات التي عرفتها عالم الروايات محل الدراسة تدلل على تطور اجتماعي كبير ومشاريع تنموية اقتصادية وعمرانية انعكست على النمو الحضري، حيث اتسعت أحوال الشخصيات وانبنت الروايات فنيا بملامح حضرية متحضرة سجلت بها طفرة سريعة في مجال العمران ورفاهية البيوت، ذلك أنه "إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه دعاهم ذلك إلى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة واستكثروا من الأقوات والملابس والتأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر، ثم تزيد أحوال الرفه والدعة فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها من التأنق في علاج القوت واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك ومعالاة البيوت والصروح وإحكام وضعها في تنجيدها والانتهاء في الصنائع في الخروج من القوة إلى الفعل الى غايتها فيتخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ويعالون في صرحها". (ابن خلدون، ١٩٨١)

كانت الطرق بين قرى الصيادين غير معبدة، وظروف السفر لمسافات قصيرة صعبة ومعقدة. تنقل "فتحية النمر" بصوت الساردة مشهد انتقال "سرور"، قبل التطور العمراني، من الشارقة إلى رأس الخيمة في بنية يغيب عنها التخطيط والخدمات وتعاني فيها القرى الهامشية والعزلة، حيث تتغلب الطبيعة على الإنسان في مرحلة سبقت إخضاعها له في مشاريع التنمية المتطورة: "سار مع الرجل، وتكبد عناء الرحلة يوما كاملا،



UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

فالطريق لم تكن سالكة أبدا، ثمة كثبان وتلال وعرة، صعود وهبوط، ورمال متطايرة، حتى لقد غرزت إطارات الشاحنة في الرمل مرات عدة". (رسائل عشاق، ص ٢٧٢)

أما بعد التحول العمراني، فقد أصبح حال الشوارع متطورا إلى جانب الأسواق والبنايات. ينتقل القارئ مع "صالحة عبيد" إلى مشهد متطور عمرانيا يضم مبان ضخمة وفضاءات استهلاكية استدعى نشاط التجارة فيها استقدام عمال أجانب ساهموا في إعادة تشكيل النسيج السكاني والثقافي، وذلك بدخول ألسنة ولغات أجنبية وأعراق وهويات متعددة أحدثت تغيرا ديموغرافيا واضحا. يقول السارد: "في شوارع مسفلتة، ومبان أخذت تكبر شيئا فشيئا.. وأسواق تبيع من الأصناف شتى، جلبت معها بدورها أصنافا شتى من الملامح والألسنة". (لعلها مزحة، ص ١٩٧)

## ٤,٤ العمالة الأجنبية والتحول المجتمعي

### ٤,٤,١ العمالة الوافدة وتحول اليد العاملة

تفتح الروايات محل الدراسة أفقا للحديث عن العمالة الوافدة في عوالم السرد، وعن ظروف أولى مراحل استقدامها واندراجها في إطار المجتمع المتحول اقتصاديا وعمرانيا، فقد لامس الروائيون قضايا الحياة الجديدة بتحولاتها وبحثها عن واقع أكثر استعدادا لقبول الغريب القادم من خارج عوالم الشخصيات وفضاءاتها وثقافتها وقيمها، حيث شكلت سردية الآخر قضايا الهوية وطرحت أسئلة الانتماء وضرورات الانفتاح والتنوع. وللتخيل السردي في لعبة السرد وقفات طويلة على رمزية التحول في اليد العاملة وعلى إرهاصاته الأولى المرتبطة باكتشاف النفط واستغلال عوائده في مشاريع التنمية.

وقد اتفقت الروايات الأربع في تأثيث فضائها بعوالم ساهمت في رسم مشاهدها شخصيات دخيلة، وظهرت مشاهد جديدة عبرت عنها رواية "السيف والزهرة"، حيث ينقل الكاتب مشكلة العمالة الأجنبية من زاوية اجتماعية واقتصادية، وذلك من خلال حوار "سلطان" مع مديره حول حضور هذه الفئة في الحياة اليومية ومشاركتها في الأنشطة الاقتصادية المختلفة. يبدي "سلطان" قناعة عميقة بعدم إمكان الاستغناء عنها في مسيرة التطور والبناء: "الدنيا تغيرت كثيرا، وصار الوافدون يشاركون الناس لقم العيش، ويعيشون معهم في بيوتهم سواء كانوا خدما أو عمالا. فهل يستطيع الناس الاستغناء عن روافد حياتهم بعد أن ارتبطت معيشتهم بهؤلاء؟ هز سلطان رأسه وأجاب على سؤاله.. أعتقد أن هذا لن يحصل أبدا". (السيف والزهرة، ص ١٣٠)

ويتابع السرد الحكاية بلغة رمزية تترجم الواقع اليومي الجديد، حيث تغيرت الأعراق واللغة والعادات اليومية في الشوارع والفضاءات العامة، وتحولت تركيبة المدن لتظهر بشكل متنوع ساهمت في تكوينه دخول الثقافات الأجنبية التي أخذت دور تسيير الكثير من الأنشطة التي كان بقوم بها الإماراتي. يقول السارد: "الشارع يكاد يخلو من "الغترة والعقال"، المقاهي والمطاعم والمحلات التجارية تصدح بأغان وموسيقى غير عربية، رائحة دهان تفوح في أجواء المدينة السوق صار بقعة من الأرض غزتها السراويل. لا صوت، لا كلمة عربية تنطق في هذا المكان. أين ذهب السكان الأصليون؟" (السيف والزهرة، ص ١٠٥)

ينقل المقطع حقيقة احتلال العمالة الأجنبية مساحات واسعة من الحياة اليومية للمدن الجديدة، وتراجع الرموز التقليدية للهوية المحلية المتمثلة في اللباس التقليدي الغترة والعقال في الفضاءات العامة، حيث اختلفت الأسواق وغزتها تقاليد جديدة في اللباس وأنواع العطور واللغات الجديدة التي حلت محل اللغة العربية ما يدلل على دخول البلد اغترابا ثقافيا جعل "سلطان" يعلن تخوفه من استمرار تراجع الثقافة المحلية

في ظل التغيرات الاجتماعية السريعة وقلقه من الهيمنة الثقافية الأجنبية، ويمثل سؤال "أين ذهب السكان الأصليون؟" سؤالا مفتوحا يختصر الوعي بأثر الواقع الثقافي الجديد وما يشكله من خطر التهميش والإقصاء.

ويقول السارد في (لعلها مزحة، ص ١٥٥) وهي تصف شوارع الشارقة التي تقطعها في السيارة في طريقها إلى المتحف في جو من الازدحام والتعدد الديموغرافي الذي أصبح يشكل جزءا من تفاصيل المشهد الحضري الجديد: "وأنا أفتح زجاج النافذة وسط الزحام وتفاصيل العابرين من مختلف الجنسيات بين الطرقات والمركبات في هذه المنطقة المليئة بالعمارات السكنية".

إن توظيف صالحة عبيد لضمير المتكلم في السرد حيث الساردة شاهدة على الأحداث ومتطابقة مع الشخصية الرئيسية "ميرة"، هو توظيف يهدف إلى تبئير الحكاية على مستوى أسباب التحول الاجتماعي الذي فرضته العمالة الوافدة، حيث أصبح التطبيع مع هذه الفئة واقعا لا يستدعي طرح الأسئلة أو التعليق المباشر، بل يتم وصفها باعتبارها مكونا مألوفا لكنه محايد باعتبار عدم تداخله مع الشخصيات المحلية. وتتابع الكاتبة مستندة إلى ساردها الذي تحكي قصة "مطر" وبحثه عن عامل آسيوي ارتكب جريمة في حقه حين كان طفلا، وهرب مختبئا في أحياء العمال: "آلاف من السحنات تعبر أمامه .. ملايين منهم يكاد يشبههم، ولا يشبهونه، وجوه متعبة بغضب، وأخرى رائقة رغم ذلك الشقاء الواضح". (لعلها مزحة، ص ١٤٥)

نقلت الكاتبة في هذا المقطع واقع العمالة الآسيوية التي استقدمت للقيام بأعمال التعمير والبناء، فاجتمعوا باعتبار عملهم ووضعيتهم في تجمعات خاصة بهم تميزهم عرقيا وثقافيا، وصورت ظهور الجريمة نتيجة لتعدد الجنسيات والأعراق والثقافات وظهور الخلل في التركيبة السكانية الذي كان سببه "الزيادة في نسبة الوافدين للدولة من الأجانب غير العرب بالدرجة الأولى، وأصبح المواطنون يشكلون أقلية سكانية في وطنهم، وقد ترتب على ذلك العديد من المشكلات، منها بروز الجريمة كظاهرة لافتة للنظر، بالإضافة إلى

التغيرات الثقافية والاجتماعية الناجمة عن تفاعل الأقلية المواطنة مع الأغلبية الوافدة من الجنسيات الأجنبية". (صبري، ٢٠٠٨)

وبلغة تصويرية تصف وضع البيوت مع العمالة المنزلية، ينقل علي الشعالي في رواية "الحي الحي" مشهدا ل"يحيى" وهو يتناول وجبة فطور إماراتي بمسحة عصرية، في إشارة إلى انفتاح المطبخ الإماراتي على المطبخ العالمي دون أن يفقد هويته وخصوصياته، حيث تحضر العمالة الأجنبية في تفاصيل الحياة اليومية بداية من أول ساعات الصباح، وتقوم الخادمات الأجنبيات بإعداد الفطور. يقول السارد: "يباشر هو أيضا التقاط ما يروقه من المائدة، إنه أمام فطور إماراتي مع مسحة عصرية، تعد معظمه خادمات من الشرق الأقصى، أتين مع الأسرة في انتقالها من المنزل السابق الذي تتدلى من أسقفه المراوح والثريات المغبرة، إلى هذه المنطقة التي تضم جنسيات أكثر مما هنالك في سجلات الأمم المتحدة". (الحي الحي، ص ٣٣)

هذه العمالة الأجنبية التي استقدمت بأعداد كبيرة للعمل في البيوت، والأخرى التي تولت وظائف كبيرة في البلد جعلت من دبي مجتمعا متنوعا ومزيجا مختلطا من الجنسيات، وهو ما يظهره محكي والدة "ذكرى" زوجة "يحيى" التي انتقلت مع زوجها من الكويت إلى دبي بعد الغزو العراقي، وأبت أن تعود وتترك المدينة التي منحتها مجالا للحياة وفرصة لتحقيق ذاتها بالسرعة التي توفرها الحياة في دبي: "أي امرأة تلك التي ستقبل أن تعود إلى الصفر وتخوض البدايات بكل ما فيها من بطء وعسر؟! لقد تمكنت في مجتمع دبي الفسيفسائي من استعادة شيء من التاريخ البائد". (الحي الحي، ص ٣٢٧)

كشفت الروايات محل الدراسة واقع الشخصيات وتحركاتها داخل الفضاء الروائي الذي كان من عناصره الشريحة المجتمعية الجديدة، ممثلة في العمالة الآسيوية التي استدعت استقدامها الحاجة لليد العاملة في بلد ناشئ بعدد محدود من السكان وخبرات قليلة لا تفي بحاجات مشاريع التنمية الكبيرة التي فرضتها ظروف الاقتصاد المتطور والتحولات الاجتماعية والعمرانية التي أنتجها. وفي هذا السياق، تقوم شخصية



UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

"سلطان" في رواية "السيف والزهرة" بدور البطل الحالم ببناء عالم جديد والانعتاق من عوالم البحر وما يحمله من رمزيات تحيل على الفقر والحاجة. تقول الشخصية: "لماذا لا نستفيد من خبرات غيرنا؟ لماذا لا نجلب هذه العقول لكي تخدمنا وتوفر لنا الراحة؟ فقد قضينا عمرا طويلا ونحن نكابد قسوة البحر وشراسته وعناده، ولم نجن منه سوى الضحايا والفقر والبؤس". (السيف والزهرة، ص ١٢٧)

وفي المقابل، فرضت التحولات المجتمعية حاجة لإعمار البلاد بما وفرته عوائد النفط وما نتج عنها من تطور كبير في مجال الاقتصاد والعمران والتعليم والثقافة. وتظهر شخصية مدير المكتب الذي يعمل فيه "سلطان" بوظيفته الجديدة البعيدة معلنا بلغة تقريرية تتناسب مع ضرورات مرحلة التغير: "ما نفعله نحن هو الصواب، وما يفكرون به هو الخطأ لأننا نريد أن نملأ هذا الفراغ وأن نبني بلادنا وأن نجعل من الأرض الصحراء حقلا زاهيا بالخضرة والخير" (السيف والزهرة، ص ١٠٩)، ويصرح في وعي كامل بمستجدات الوضع الاقتصادي والعمراني للبلد، وحاجتها لليد العاملة الأجنبية التي لم تعد خيارا، وإنما ضرورة ملحة ضمن حدود المنفعة المتبادلة وخدمة المشاريع التنموية الكبرى: "تواجد العمالة الأجنبية أمر واجب وضروري لأننا بحاجة إلى الأيدي العاملة التي تقوم بقضاء حاجات الناس والمشاركة ببناء نهضتنا". (السيف والزهرة، ص ١٠١)

ولأن وتيرة التطور كانت سريعة، فإن الإنسان الإماراتي في بدايات التحول لم تتح له فرص التعليم ولم تتوفر لمجتمعه الكفاءات المطلوبة والخبرات الكافية لتسيير اقتصاد متطور. ينقل علي أبو الريش حوارا بين "سلطان" ومديره، حيث ينشر الأخير خبر قرار الحكومة وضع قيود على استقدام العمالة الأجنبية التي تقوم بأعمال مزدوجة تتمثل في الأعمال الشاقة والأعمال التي تتطلب خبرة عقلية وذهنية، وفي الحوار ينتقد "سلطان" ضعف الخبرة المحلية وعدم استيعابها ما يتطلبه سوق العمل من كفاءات ومهارات كبيرة: "أخذ المدير شهيقا طويلا وقال في نبرة حزينة .. سمعت أن الحكومة ستضع قيودا على الوزارة بشأن قضية العمالة،



UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

وهذا طبعا يؤثر على مصالح الكثير من الناس، الذين يتطلعون إلى المزيد من أجل تعمير البلد وازدهار التجارة... البلد بحاجة إلى خبرات وإلى عمال، والحكومة تعرف أن المواطن لا يزال قاصرا ولا يستطيع العمل في هذه الميادين .. أقصد ميادين العمل الشاقة والتي تحتاج إلى خبرات عملية وذهنية. واستطرد سلطان والعرق ينزف من جبينه .. البلد في مرحلة النمو والمواطن خبرته قصيرة جدا، وحتى العرب فهؤلاء مشاكلهم كثيرة وعملهم ضئيل جدا قياسا إلى العمال الذين نجلبهم من خارج الوطن العربي". (السيف والزهرة، ص ١٠٨)

إن المعنى الكامن في المقاطع السردية السابقة يؤشر على التحول الكبير الذي ظهرت ملامحه سريعا على مستوى قناعات الشخصيات حول توافد العمالة الأجنبية، ما يحيل على تأثير التحول الاقتصادي في التفكير والثقافة، ذلك أن الطفرة العمرانية الناتجة عن التحول من اقتصاد بسيط إلى اقتصاد سريع التطور فرض ضرورة العمالة الأجنبية في البلد. يقول السارد: "فلولاهم كيف سيتم بناء الوطن .. العمارات الشاهقة، الشوارع المرصوفة. الشركات الضخمة، البنوك. حتى صغار الموظفين والعاملين من سائقي سيارات الأجرة، والفراشين نحن بحاجة إلى هؤلاء .. بدونهم ستشل حركة العمران في البلد ولن نجد من يخدمنا ويوفر لنا حاجاتنا بسخاء". (السيف والزهرة، ص ١٠١)

ولم تقتصر العمالة على العمال في ورش البناء، بل امتدت لتشمل العمالة داخل البيوت والمتمثلة في الخادمات والمربيات اللواتي أصبحن عناصر لا يمكن الاستغناء عنها، حيث "برز تعليم المرأة الإماراتية في ظل التغيرات الاقتصادية التي أصابت الدولة، إذ وجدت هناك حاجة لعملها سواء في المدارس أو المستشفيات أو مجالات أخرى، فزادت الحاجة إلى العمالة المنزلية (السائق أو المربية) لسد الفراغ الحاصل بسبب عمل المرأة والشروط المعقدة التي يضعها القطاع الخاص التي لا تتوفر كلها في طلب العمل من المواطنين الإماراتيين، فضلا عن ذلك الطريقة التي يتم بها استقدام العمالة في الإمارات ومن الناحية الثقافية

ولاسيما الخدم والسواق حسب حجم الأسرة والمنزل والالتزامات الاجتماعية الضرورية وكثرة الولائم التي تقيمها الأسرة بسبب التقليد والمحاكاة مما يولد حاجة أخرى للعمالة الأجنبية (الخدم)". (الأعرجي، ٢٠١٩)

وقد عنقلت فتحية النمر هذه الصورة بصوت الساردة التي تحكي عن نفسها في ممارستها للعبة الفنية التي تخولها الحضور باستنادها لضمير المتكلم. تقول الساردة وهي تحكي شعورها بالوحدة واعتزالها أهل البيت كلهم إلا الخادمة: "أما اليوم فأنا وحيدة في البيت رغم وجود العجوز التي تساوى لدي وجودها مع عدمه" (رسائل عشاق، ص ٦٤). وتستمر في سردها لتعبر عن ملاذها في وحدتها ولجوئها إلى الخادمة: "حتى صرت إلى اليوم الذي لا يشاركني في عيش تفاصيله سوى الخادمة الهندية التي جلبتها فطيم، أو بالأحرى جلبها شقيق عليا لمساعدة فطيم في أشغال البيت التي كانت تتولاها العجوز بنفسها حتى تلك الساعة، ولا تتنازل عنها قيد أنملة". (رسائل عشاق، ص ٦٤)

أدت الوفرة الاقتصادية وحداثة البيوت وتطورها إلى تزايد الحاجات والكماليات فيها، فتعددت العاملات في البيت الواحد، حيث تستقدم خادمة أو أكثر للعمل المنزلي وأكثر من مربية لرعاية الأطفال، فأصبحت الصورة انعكاسا لوضع اجتماعي يقاس فيه مستوى الترف داخل الأسرة بعدد الخادمات والمربيات. وقد تستعين الخادمة نتيجة ضغط العمل بالمربية للقيام بشؤون تنظيف البيت. يقول السارد في رواية (لعلها مزحة، ص ٧٢): "حتى المربية هي الأخرى، انشغلت مع الخادمة التي أحضرت لمعاونتها على هذا المنزل الكبير المكون من طابقين والكثير من الغرف المجهزة لضيوف آيبين".

أصبح وجود الخادمة ضرورة لاستمرار نظام البيت، واقترنت وظيفتها بمشاعر الأمان والاطمئنان التي تعيشها الأسرة في حال غياب أفرادها عن البيت دون أن يؤثر ذلك في نظامه والقيام بأعماله. وصارت الخادمة متقنة لمهامها عارفة بالبيت وأسراره، ودليلا على ترف الحياة الجديدة الناتجة عن التطور الاقتصادي

والتحول المجتمعي السريع. تقول الساردة في (رسائل عشاق، ص ١٠١): "لا شيء سيتعطل، فالخادمة ستقوم بواجبها على أحسن وجه".

ظهرت في فضاءات الروايات شخصية الخادمة المتقنة لواجباتها وشخصية المربية التي أوكلت لها مهمة الاهتمام بالأبناء حتى صارت فردا من أفراد الأسرة، عارفة بلغة أهل البيت ومشاركة لهم مشاعر الفرح والحزن. تسرد الراوية حكايتها في (لعلها مزحة، ص ١٢) برؤية خارجية وهي تحكي بضمير الغائب حدث وفاة الجدة: "تذكر بوضوح نشيج أمها، وهي تغادر المركبة، شكل الحزن على وجه والدها، شهقة المربية التي كانت تمسك بيدها الصغيرة عند الباب، والعبارة الركيكة التي راحت تتضاعف في هواء المنزل، والحي والعالم. "يدو موت"".

وتروي فتحية النمر بوجهة نظر الأنا المشارك كما يسميها نورمان فريدمان، حيث الراوي المتكلم هو الشخصية المحورية التي ترافقها الخادمة في البيت وخارجه، وفي زياراتها لصديقاتها خفية خوفا من عقاب زوجة الأب: "ركبت مع السائق والخادمة، ووصلنا إلى البيت، لنكون نحن الثلاثة أمام المفاجأة التي كنا نخشاها .. لقد أحكمت فطيم غلق الباب من الداخل بالمفتاح". (رسائل عشاق، ص ١٠٨)

تبدأ الشخصيات يومها بوجود الخادمة التي ترافق الأطفال إلى الحافلة التي تقلهم إلى المدارس، حيث تتجاوز مسؤوليتها الرعاية داخل البيت إلى إعداد الأطفال لمغادرته إلى مدارسهم، ما يوفر لهم الدعم العاطفي ومشاعر الاستقرار والأمان في عالمهم الواسع خارج حدود البيت. تقول "ميرة" في رواية (لعلها مزحة، ص ١٦) وهي تسترجع طفولتها وحضور المربية النشيط لأداء مهامها: "كان تفاعلنا مع العالم الخارجي يبدأ يوميا بصوت محرك الحافلة الهادر، التي تسبقه طرقات العم "مسلم" على باب بيتنا الأبيض .. وخطوات المربية المسرعة بنا أنا و"مطر" نحو الباب". وقبل حافلات المدرسة، تجهز الخادمة شاي الصباح لتحضره ل"مسلم" وهو ينتظر مع "ميرة" حافلة البنات. تقول الشخصية: "وأنتظر أنا مع "مسلم" أمام الباب لنصف

ساعة أخرى .. يشرب شايه الصباحي الذي تجلبه المربية مع قطعة خبز "الخمير" الساخنة". (لعلها مزحة، ص ١٦)

اعتاد "مطر" و"ميرة" و"مسلم" وشخصيات الرواية عمل الخادمة، وارتبطوا على اختلاف أعمارهم بما تقوم به من أعمال البيت، ف""مطر" و"ميرة" الصغيران "يتسللان بعد عودتهما من المدرسة بين الأب و"مسلم" والأم والمربية" (لعلها مزحة، ص ٤٤). وتنقل صالحة عبيد رحلة مع "ميرة" إلى البحر ليقتل الملح الطفح الذي أصابها، وكيف رافقتها المربية التي تلازمها دائما، وحاولت إخراجها من البحر، لكن الصغيرة: "تتأوه من ثقل يد المربية التي راحت تجففها في شيء من الخشونة" (لعلها مزحة، ص ١٣). وكذلك ارتبطت شخصية "مطر" بعمل الخادمة والمربية. تقول "ميرة": "ف"مطر" الذي عاد إلى غرفته الغريبة مع والده، أصبح يستيقظ معه، يتناولان طعام الإفطار الذي بدأت المربية بالاعتياد على إيصاله لهما قبل أن أستيقظ وحدي". (لعلها مزحة، ص ٤٦)

حضرت الخادمة أيضا في تفاصيل "رسائل عشاق"، وساهمت في تطور الأحداث بما يمنح دلالات التغير الاجتماعي والتحول نحو نمط حياة جديد مختلف، حيث تقول الساردة في حكايتها عن أختها "حصة" ومحاولتها إقناعها بمغادرة بيت العائلة متذرعة بخوفها من تعرضه للسرقة ولا رجل معها فيه، فتأتيها الخادمة التي تشاركها كل شيء يخصها بالسبب وراء محاولة أختها: "حتى لقد صرت أناجي ربي متسائلة: "يا رب، لم تغير حالها؟ لم انقلبت إلى واحدة لا تشبهها؟" إلى أن جاءت الخادمة الهندية بالخبر اليقين قائلة إنها سمعت في المرة الأخيرة – حين كانت حصة في ضيافتنا مع زوجها – ذلك اللئيم يهدد حصة، ويعيرها بأنها فاشلة في كل شيء بما في ذلك حل أتفه المشكلات". (رسائل عشاق، ص ٧٠)

كما تظهر الخادمة، إلى جانب مسؤولياتها في البيت، قادرة على القيام بشؤونها الخاصة خارجه. تقول الشخصية التي تقوم بمهمة السرد وهي تنقل حدث انتظارها فرصة خروج الخادمة لتبحث في صندوق لأمها المتوفاة: "تحينت الفرصة، فقد صار البيت خاليا إلا مني، حتى الخادمة ذهبت إلى السوق وقالت إنها ستمر قبلها ببيت صديقتها لتكتب لها رسالة". (رسائل عشاق، ص ٢٩٠)

ساهم خدم البيوت إلى جانب العمالة الأخرى في رسم صورة دبي المتعددة الجنسيات والأعراق والأديان، وقد نقل السرد هذه الصورة في شعور "يحيى" بالأصالة وسط زملائه غير الإماراتيين، حيث يوظف إرثه الاجتماعي وانتماءه المتجذر لأرض دبي وحاضرها للتفاخر بين أصدقائه بأصالته والانتشاء بتميزه بينهم بالانتماء للأرض التي يعيش عليها ويتمنى الآخرون لوكانوا مثله: "أما يحيى فلم يزد على معرفة قصص أبيه وأعمامه للتندر في اجتماعات العائلة، واستعراض الأصالة أمام زملائه متعددي الأعراق المقيمين في دبي، والمتلمسين ولو خيطا مهترئا يصلهم بأهلها وماضيها". (الحي الحي، ص ١٥٦)

تتابعت الأحداث في الروايات محل الدراسة، بفعل انتقال المجتمع إلى حياة الترف والرفاهية، لترسم مشاهد اختلطت فيها الثقافات واللغات والألسنة، وتحولت فيها التركيبة السكانية بفعل الهجرة بعد أن أصبحت المدن الناشئة المتطورة جاذبة لليد العاملة الأجنبية، إذ "لا يمكن أن تتم الحركة السكانية المتمثلة في الهجرات بكل أنواعها إلا بعوامل طاردة أو جاذبة، فعوامل الجذب هي مجموعة من التطورات الاجتماعية والديموغرافية والاقتصادية، وتتمثل في النمو الاقتصادي في البلد المهاجر إليه، أما العوامل الطاردة فتتمثل في البطالة والفقر والتخلف، وهي شروط موجودة دائما بصورة تكثر أو تقل" (نبيل وذكي، ٢٠١٧). ولم يقتصر الأمر على الآسيويين، بل اتسم التركيب السكاني بالتنوع، وذلك لاختلاف جنسيات المهاجرين وملامحهم وألسنتهم. تقول الساردة في رواية (لعلها مزحة، ص ١٩٧): "في شوارع مسفلتة، ومبان أخذت تكبر شيئا فشيئا .. وأسواق تبيع من الأصناف شتى، جلبت معها بدورها أصنافا شتى من الملامح والألسنة".

ولأن القوة العاملة المحلية تنقصها الخبرة، والتعليم كان ما يزال في بدايات تطوره، فقد وصلت شخصيات الروايات محل الدراسة إلى قناعاتها المتمثلة في ضرورة استقدام اليد العاملة من خارج البلد. ينقل السارد صوت "سلطان" قائلا: "نحن لازلنا تنقصنا القدرة على العمل، ولا نستطيع الاعتماد على الجهد الذاتي" (السيف والزهرة، ص ١١٥)، "مادام المواطن لم يصل بعد إلى مرحلة الاعتماد الذاتي". (السيف والزهرة، ص ١٣١)

شكلت العمالة الأجنبية، إذن، في الروايات محل الدراسة ثيمة أساسية تؤثث الفضاء الروائي بمكوناته المختلفة، حيث رصدت التحولات التي عرفها المجتمع الإماراتي نتيجة استقدام هذه الفئة من بلدانها الأصلية بهدف العمل في مشاريع التنمية، "ولاسيما أن دول الخليج العربي تتميز بقلة عدد السكان، مما يعني محدودية قوة العمل الوطنية، وعدم كفايتها لسد الاحتياجات المطلوبة، وعليه كان الاعتماد ولا يزال على العمالة الوافدة، لدرجة أن هذه العمالة أصبحت تمثل الغالبية العظمى من السكان في بعض الأقطار الخليجية مثل الإمارات والكويت وقطر" (أحمد، ٢٠٠٣). وبذلك أصبح العامل مكونا ظاهرا، مؤثرا ومتأثرا بمجتمع الشخصيات ومحركا للأحداث، "فالعامل الأجنبي صار شريانا رئيسيا يغذي جيوب الناس" (السيف والزهرة، ص ١٣١)، وأصبح الإماراتي غريبا في بعض الأحياء ومناطق المدينة، ك"مطر" "الذي يكاد يصبح غريبا مع والده في حي غادره أهله، وراحت تتكدس فيه تلك الأعداد الهائلة من العمال الذين راحت تجمعهم شركات المقاولات في تلك الأحياء بالباطن لتوفير النفقات". (لعلها مزحة، ص ١٢١)

### ٤,٤,٢ العمالة الوافدة بين القبول والرفض

قدم كتاب الروايات محل الدراسة، باعتبارها متونا غنية بالظواهر الاجتماعية والثقافية، مواقفهم من العمالة الأجنبية تراوحت بين رفض مسبباتها وبين قبولها والتعبير عن مساندتهم لها بما أحدثته من تحولات عميقة في المجتمع، "ولا ريب في أن أصحاب هذا الاتجاه قد تناولوا شخصية الوافد بوصفه إنسانا، كائنا بشريا دون اعتبار لجنسيته؛ فعبروا عن آلام وآمال هذه الشخصية المسحوقة بنظرة يتجلى فيها العطف والشفقة، فراحوا يرصدون القيود والأغلال التي تكبل هذه الفئة، بل راح بعض القاصين يسوغون لهذه الشخصيات إقدامها على الانتحار؛ بسبب سقوط هذه الشخصية صريعة تحت أقدام واقع مؤلم مر". (أحمد، ٢٠٠٣)

أما التوجه الثاني الذي مثلته الروايات المدروسة، والذي ينظر إلى موضوع العمالة الوافدة نظرة واقعية تشمل كل مناحي الحياة الاجتماعية ومجالاتها، فقد مثل رؤية واقعية نقدية تعاملت مع العامل الوافد تعاملا موضوعيا بعيدا عن العاطفة، وهي "رؤية متشائمة ترصد ظواهر اجتماعية سلبية ناتجة عن وجود هذه العمالة، كما أنها تدق ناقوس الخطر الذي يتهدد هذه البلاد بسبب تغير كثير من المفاهيم والقيم والاتجاهات من جراء وجود هذه العمالة، وما أفرزته وتفرزه من سلبيات ومخاطر تهدد الهوية الوطنية والثقافية في آن واحد". (أحمد، ٢٠٠٣)

ولأن الأدب مرتبط بالحياة بأبعادها الاجتماعية والثقافية والسياسية، ولقدرة الرواية على تصوير الواقع بالشروط الفنية الإبداعية، فقد نقلت الروايات محل الدراسة عوالم تشكل الدولة الناشئة في الإمارات وبدء مرحلة التعمير والبناء، وأبدت شخصيات فيها رفضها للعمالة الأجنبية، خاصة في بدايات استقدامها نظرا لما تحمله معها من ثقافات وقيم مختلفة يتزايد معها الخوف من الآخر. ينقل علي أبو الريش مشهدا لاجتماع الأهالي في ديوانية "أبي صالح" كفضاء شعبي يجمعهم لطرح القضايا التي تهمهم، حيث احتد

النقاش حول العمالة الوافدة وتضاربت الآراء حول من يقبلها واقعا مفروضا ومن يتخوف منها ويبدي قلقه من فقدان الهوية والخصوصية الثقافية نتيجة لسيطرتها على سوق العمل واليد العاملة: "في ديوانية أبي صالح، كان لفيف من الأصدقاء يؤمهم حديث ساخن، وكان سلطان أحد هؤلاء الجلوس، اقتعد مسنده في ركن قصي، وأنشأ ينصت باهتمام وإمعان لما يدور في الديوانية، قال أحد الجالسينواسمه يوسف .. الديرة امتلأت بالغرباء حتى أصبحنا نحن الغرباء في بلدنا .. جلجل صوت آخر .. بدون هؤلاء أنت لا تعرف تحفظ فلوسك الطائلة، ولا تستطيع أن تقضي أعمال شركات الطيران ولا يمكن أن تعتمد على نفسك في إدارة محلاتك المنتشرة في أرجاء البلد .. حملق يوسف وأخذ يقلب بصره في الوجوه الساهمة .. لم يرد أحد، ولم تتحرك سواكن الجالسين.. عغمغم في لهجة متوترة.. مشكلة .. مشكلة .. في حين نطق وجهه بابتسامة نمت عن رضاه بالأمر الواقع، وقبوله به طالما أصبحت المسألة متعلقة بالعمل". (السيف والزهرة، ص ١١٧)

يظهر تردد "يوسف" في رأيه بعد ما أبداه أحد الحاضرين من وجهة نظر واقعية تربط وجود العمالة الأجنبية بالحاجة الاقتصادية الكبيرة وبالمنفعة العامة، ويظهر الصمت الجماعي الذي عم الديوانية كرد فعل على ما قاله "يوسف" حالة من الرضا التام بالواقع رغم حالة التوتر والقلق مما يمكن أن يمس القيم ومكونات الهوية الثقافية. ويستمر الحوار في لعبة الإيهام بواقعية الحدث في قول "أبي صالح" في حواره مع "خليفة" و"سلطان" و"يوسف" الذين يرحبون بالعامل الأجنبي: "يا جماعة الخير، إن ما تفكرون به هو الدمار والخراب لهذا البلد، تسليمكم خيرات البلد للأغراب خيانة وكفر بنعم الله.. ما فائدة الناس إذا كانوا يوكلون أموالهم بأيدي أناس لا يمتون لهم بصلة.. هل تعرفون جنسيات هؤلاء؟" (السيف والزهرة، ص ١١٨)

لقد شكل الخوف من المستقبل ومن المساس بالهوية والثقافة والقيم دافعا قويا لرفض العمالة الوافدة، "وبسبب الاعتماد الكبير على العمالة الأسيوية الذي خلق مكونا اجتماعيا يعرض السكان وهوية وثقافة البلاد للخطر، بعد أن كانت الصورة النمطية السائدة في مجتمع الإمارات بداية تأسيسه هي تلك التي

تظهره على أنه مجتمع تقليدي محافظ ولا يرحب كثيرا بالتغيير الاجتماعي الجذري سواء كان ذلك على شكل ثقافات أو أفراد جدد أو قيم مغايرة لقيمه، لذلك فإن اندماج أفراد جدد في مجتمعات لا تحمل ثقافتهم الاجتماعية ولا خلفيتهم التاريخية يعد أمرا غاية في الصعوبة". (الأعرجي، ٢٠١٩)

يرفض "مسلم" في رواية "لعلها مزحة" مغادرة الحي الذي يسكنه بعد أن أقام فيه الأغراب القادمون للعمل في الشارقة، ويبدي تشبثا بالمكان وكأنه لا يرحب بهذه الفئة التي صار وجودها ضروريا، تقول "ميرة" وهي تحكي علاقتها ب"مطر" واشتراكهما في نظرتهما للتناقض الذي تعرفه الأحياء نتيجة دخول العمال الأجانب وإحساسهما بالتهديد الذي تشكله هذه المكونات المجتمعية الجديدة: "شيء ما جعلنا نعتقد أن هؤلاء الكبار لا ينتمون إلى هذا العالم الذي ننتمي إليه، كان يطلعني على تناقض وجوه الحي المألوفة بالتدريج، لتأتي محلها وجوه غريبة، بلكنات ولغات أغرب، فيما لا يزالان هو و"مسلم" في هذا البيت الصغير المتهالك، "مسلم" يرفض أن يغادر هذا الحي، تكفيه هذه المسافة المضللة عن البحر". (لعلها مزحة، ص ٧٢)

إن سرعة تدفق الأعداد الكبيرة من العمالة الوافدة أثارت الكثير من المخاوف والهواجس سواء لدى أبناء الصيادين أو في التجمعات السكنية الصغيرة في عوالم الروايات، فالزيادة السكانية السريعة تحمل معها مخاطر التهميش الاجتماعي وانتشار الجريمة. يستمر علي أبو الريش في تقديم الحكاية مستندا إلى سارده ومقدما مشهد مناقشة موضوع العمال الوافدين، واصفا رد فعل "أبي صالح" وخوفه من الجريمة وانعدام الأمن: "أبو صالح يهدر كالموج.. كنا في السابق ننام في أي مكان، ونساؤنا يمتلكن الحرية في الطرق والأزقة، أما الآن، فقد أصبحنا نخاف على أرواحنا ونحن في بيوتنا، فالجرائم التي نسمع عنها في بلاد هؤلاء لا يستبعد أبدا أن تنتقل إلينا لأن أصحابها غادروا أرضهم بعد أن أمطروها بالخزي والعار والدم". (السيف والزهرة، ص ١١٩)

وتنقل صالحة عبيد ما سببته العمالة الوافدة من مخاوف تتعلق بالأمن والاستقرار المجتمعي، خاصة بعد انحسار الرقابة المجتمعية التي كانت تحكم التجمعات السكنية للصيادين وسهولة اختفاء مرتكب الجريمة في الأحياء المهمشة. تعرض "مسلم" في طفولته لجريمة اعتداء جنسي من عامل أجنبي، وأصر الضحية على البحث عنه في الحارات التي يسكنها العمال حتى إنه سكن معهم في حيهم. يقول السارد: "يجاورهم في الحارات التي غادرها أصحابها الأصليون، ولا أحد منهم له ذلك الوجه الذي لا يمكن له أن ينساه، كل ألم يعبره مرتبط به.. كل غثيان، كل صدمة، كل تعثر، كل خدش، كل نزف، كل انهيار، كل ضغينة، كل اشتعال، كان قيده وخلاصه، وخلاصه لن يكون إلا لو وجده". (لعلها مزحة، ص ١٤٧)

لكن "مطر" لن يجد المجرم، ويظل يشعر بالعار وغياب العدالة ليصل بعد سنوات إلى العراق منضما إلى الجماعات المتطرفة بعين مخدوشة تشبه عين أبيه "مسلم" في إشارة عميقة إلى انتقال الجرح من الأب إلى الابن وتحوله إلى رمز للتطرف والتشظي والضياع "دون أن يدرك أن من يبحث عنه منذ سنوات كان طوال ذلك الوقت في السجن.. كان محظوظا دائما بالنجاح في الهرب من مداهمات الشرطة وفرق البلدية للعثور على أصحاب الإقامات غير الشرعية، والكشف عن مساكن التأجير العمالية بالباطن في تمهيد لذلك القانون الحاسم الذي سيصاغ في سنوات لاحقة، لم يعرف أن ذلك الحظ كانت لعنته الأبدية أيضا.. وأنه كان مفتاح ضياعه الممتد.. بين سذاجة فكرته، وعمق كراهيته وفوضى الشخوص والوجوه". (لعلها مزحة، ص ١٤٨)

تنطلق المقاطع السردية السابقة في نظرتها إلى العمالة الأجنبية من رؤية متشائمة تخشى الجانب السلب في الظاهرة، "كما أنها تدق ناقوس الخطر الذي يتهدد هذه البلاد بسبب تغير كثير من المفاهيم والقيم والاتجاهات من جراء وجود هذه العمالة، وما أفرزته وتفرزه من سلبيات ومخاطر تهدد الهوية الوطنية والثقافية في آن واحد. وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن أصحاب هذه الرؤية الذين يرصدون هذه

السلبيات لهم مبتغى وهدف ينشدونه من وراء ذلك، فهم محبون لوطنهم، مخلصون له، غير عليه، إنهم يرون أن كشف الواقع، بل فضحه وتعريته – من خلال أعمالهم الإبداعية – في صالح المجتمع الذي يعيشون فيه، وينعمون بخيره، ومن حق المجتمع النهوض بسلوكياته وأخلاقياته". (خالد، ٢٠١٣)

وقد أدى تدفق العمالة الأجنبية وخاصة الآسيوية منها إلى تغير نظرة الإماراتيين للعمل اليدوي الذي كان سائدا قبل النفط، واعتبروه عملا غير ذي قيمة لا يليق بمجتمع غني بموارد النفط وعوائده، حيث إن "أهم ما يتعلق بمخاطر العمالة اقتصاديا هو ما يتعلق بنظرة المواطنين للعمل والتوظيف، فالتدفق الواسع للعمالة لاسيما الآسيوية الرخيصة للدولة واستخدامها في جميع الأعمال والأنشطة سواء على مستوى الخدمات العامة أو الشخصية (المنزلية)، أثر في نظرة المواطنين للعمل اليدوي، إذ ابتعد غالبهم عن العمل المنتج الذي كان سائدا في المجتمع والمتمثل ب(التجارة، والحرفة، والبناء، والحدادة والنجارة وصناعة السفن وشباك الصيد والزراعة)، إذ يشكلون الطبقة الحقيقية للعمل في المجتمع من صنع أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية... أما في مجتمع ما بعد النفط فقد ترفع المواطنون عن العمل الوظيفي (اليدوي)، وبدؤوا ينظرون إليه نظرة احتقار، متوجهين إلى الوظائف الحكومية التي أصبحت بنظرهم ذات قيمة اجتماعية، كما أنها تتيح لهم المشاركة في توزيع الثروة النفطية" (الأعرجي، ٢٠١٩). وفي هذا السياق، ينظر سلطان لنفسه بعد عمله في الوزارة كإمبراطور: "لقد تغيرت حياتي وصرت مسؤولا مهما في الوزارة، الناس يتوافدون إلي في المكتب، يطلبون خدماتي، يحنون الظهور، ويستقبلون نظراتي الحانقة بخشوع، وأنا أجلس على الكرسي العملاق وبين الحشد الهائل من الأثاث والزينة، كإمبراطور يتنفس نسيم العطور بعد زمان من الحرب والمكابد والمعاناة". (السيف والزهرة، ص ٨٨)

وفي المقابل، يستطيع القارئ للروايات محل الدراسة تتبع اتجاه آخر للشخصيات ينظر إلى العمالة الوافدة وخدم البيوت والمهن الصغيرة نظرة إنسانية تحمل تعاطفا كبيرا مع شخصية العامل الوافد "بوصفها

شخصية إنسانية مقهورة مطحونة، هجرت بلادها (موطنها الأصلي) بعد أن ضاقت عليها الأرض بما رحبت، فجاءت مهاجرة ساعية في دأب باحثة عن مصدر رزق ومغنم في وسط جديد؛ بغية تحسين وضعها المادي، ثم المعيشي لأناس ينتظرون عائدات هذه العمالة، وقد اعتقدت هذه الفئة أو بعض أفرادها أن طريق الثروة قد انفسح أمامهم لمجرد انزياحهم عن بلدانهم الفقيرة، وقدومهم إلى هذه البلاد ومن بينها دولة الإمارات" (خالد، ٢٠١٣).

وفي هذا السياق، تنقل رواية "السيف والزهرة" بنظرة إنسانية متعاطفة صورة خضوع العمال الآسيويين أصحاب المهن البسيطة لمشغليهم، حيث يقول السارد: "الأغراب يخضعون ويركعون ولو ضرب الواحد منهم على وجهه فلا يمكن أن يرفع بصره في وجهك. تسوقهم مثل "الغنم" وينفذون بلا معارضة.. كل هذه المحاسن، وهم يقبلون بالراتب الزهيد ويعتبرونه سخاء من صاحب العمل، أما المواطن فهو لا يشبع ولا يقنع حتى إن ملأ جيبه بالمال، فيظل يشكو من الظلم والحرمان". (السيف والزهرة، ص ١١٨)

ومع تتابع الأحداث، سجلت الروايات تحول الرفض إلى قبول، بل أصبح المناهض للوافد طالبا له، و"على الرغم من موجة الغضب التي تجتاح البعض، إلا أن الرغبة في قبول توافد العمالة رغبة تفرزها مصلحة ازدهار البلد ومصلحة أصحاب المحلات الكبرى وهؤلاء هم الذين يحملون البلد على أكتافهم" (السيف والزهرة، ص ١١٩)، "وحتى الذين يرفضون سيجدون أنفسهم في حاجة ماسة إلى هؤلاء". (السيف والزهرة، ص ١٣٠)

وفي إطار التحولات التي أنتجتها العمالة الأجنبية، عرفت عوالم الروايات محل الدراسة تغيرات ديموغرافية وسكانية عبرت عنها التقنيات الفنية الروائية، وذلك بعد أن "كان سكان دولة الإمارات حتى منتصف القرن الماضي قليلي العدد، ويعتمدون في اقتصادهم على حرف بسيطة تدر عليهم دخلا محدودا ولا تعول إلا أعدادا ضئيلة من الأفراد، وتمثلت هذه الحرف في صيد اللؤلؤ والتجارة البحرية، ولم يكن للهجرة

الوافدة أو الزيادة الطبيعية دور كبير في الزيادة السكانية حتى ذلك الحين". (الحبسي، ٢٠١١). يصور علي أبو الريش مظاهر التحول العمراني التي ميزت البنية السكانية في البلد، حيث أصبح الوافدون يشكلون النسبة الأكبر من السكان وتزايد عددهم بشكل لا ترى فيه مواطنا في الشوارع والأسواق والمحلات التجارية:

"ولو أخذت جولة في البلد، سترى الشوارع والأسواق والمحلات التجارية والبيوت قد أصبحت مزيجا من المواطنين والوافدين لا تستطيع أن تميز بينهم، وفي كثير من الأحياء قد لا ترى مواطنا واحدا بسبب الكثرة والازدحام الذي خلقه الوافدون". (السيف والزهرة، ص ١٣٠)

## ٤,٥ تحولات العلاقات الاجتماعية

### ٤,٥,١ العلاقات الاجتماعية قبل التحول المجتمعي

مثلت الروايات موضوع الدراسة فضاء واسعا لتحرك شخصياتها ضمن علاقات اجتماعية تميزت بالترابط والقوة والدفء في قرى الصيادين قبل انتقالهم إلى المدن الناشئة وأحيائها الجديدة المتطورة، كما صورت الروايات مشاعر الانتماء للأرض والقرية والبحر في إطار المجموعات السكانية الصغيرة التي تربطها المصلحة المشتركة وتوحد أعضاءها المهنة وتجانس الوضع الطبقي، "ففي المجتمعات الريفية التقليدية يتمسك الناس بفكرة مثالية تنعكس في إحساسهم بالالتزام المتبادل داخل إطار الأسرة والجماعة من الأصحاب، وتفضيلهم العام للانتماء إلى جماعة صغيرة والرغبة في انتقاد أي فرد ينحرف عن السلوك المعتاد" (استيتية، ٢٠١٤). "والحق أنه حيث يوجد التعاون الاجتماعي، وبالرغم من صفته اللامادية، فإنه لا يبقى في حالة الإمكان المجرد، بل إنه يعبر عن وجوده بآثار محسوسة. وحيث يكون قويا، فإنه يحمل الناس على أن يميلوا بعضهم إلى بعض، ويزيد اتصالاتهم، ويكثر من المناسبات التي يجدون فيها أنفسهم غنية بالعلاقات المتبادلة". (دوركهايم، ١٩٨٢)

تصف صالحة عبيد صورة العلاقات الاجتماعية القديمة التي لم تكن محددة بالمكان أو تقارب البيوت، بل كانت قائمة على التلاحم والمشاركة الحياتية في مواجهة المحن التي كانت تسببها رحلات الصيد والغوص، بينما تتسم العلاقات الجديدة بعد التحولات الاجتماعية بالتنافر والتوتر والخضوع للتمييز والرقابة التي تتصيد العثرات وتضيق الحريات. يقول السارد مستخدمة نقنية المقارنة لإبراز التناقض بين ماضي العلاقات الاجتماعية وحاضرها وبلغة تصويرية تحمل مشاعر الحنين إلى الماضي وتستحضر الذاكرة الجماعية المشتركة: "لم يكن الأمر ليكون مستغربا وسط مجتمع صغير بسيط التعقيد، كمجتمع ذلك الوقت.. حيث كانت المجاورة تتجاوز مفهومها القائم على التراص الجغرافي، لقد أفردت المحن الصغيرة والكبيرة التي كانت تعصف ببيوت الساحل في أزمنة الغوص، شكلا إنسانيا عميقا من الشراكة، استمر إلى ما بعد هذه الأزمنة التي كان أهلها يحاولون أن يتمسكوا بذاكرة وتفاصيل، تتسرب أسرع فأسرع، الجيرة هي شيء أقرب للرابط الأسري المحكم هنا، كان ذلك قبل أن تتحول إلى قيود من التحكم الخانق ومخاوف القيل والقال وأشكال أخرى لا مبررة من التمييز". (لعلها مزحة، ص ٤٠)

إن الفرد في المجتمعات البسيطة لا يكتفي بنفسه، ويعلن ولاءه التام للجماعة، "يتلقى كل ما هو بحاجة إليه، وهو ربما يعمل من أجلها. وهكذا يتكون لدى الفرد شعور قوي بحالة التبعية التي هو فيها، فيتعود أن يقدر نفسه حق قدرها، أي أنه لا ينظر إليها إلا كجزء من كل، وكعضو في جهاز. وليس شأن هذه المشاعر أن تحمل على التضحيات اليومية التي تؤمن النمو المتسق للحياة الاجتماعية اليومية فحسب، بل إن من طبيعتها أيضا أن تحمل، في بعض المناسبات، على أعمال يبرز فيها نكران الذات التام، والإخلاص الذي ليس وراءه منفعة. وكذلك فإن المجتمع يتعلم، بدوره، ألا ينظر إلى الأعضاء الذين يؤلفونه، كمجرد أدوات له عليها حقوق، بل كمجموعة أفراد متعاونين لا يستطيع الاستغناء عنهم، ولهم عليه واجبات" (دوركهايم، ١٩٨٢). ينقل علي أبو الريش معاني التلاحم الاجتماعي في مشهد اجتماع رجال

القرية في ديوانية "أبي صالح" لمناقشة ما رأوه خطرا عليهم وعلى مصالحهم المشتركة بعد دخول الغريب قريتهم، وقد حرص الكاتب أن يعم الاجتماع مشاعر الارتياح وصدق التعبير الذي يوفره دفء العلاقات وقوتها. يقول السارد: "اجتمع أصدقاء الماضي، ودارت أقداح القهوة .. أخرج أبوصالح "المدواخ" شحنه بالتبغ وأشعله، أخذ نفسا طويلا ونفث دخانا كثيفا، ثم نفض "المدواخ" وأفرغ منه الرماد، وصاح في صوت مزمجر، محتجا على الجالسين .. قال أنتم السبب في المشكلة، كنا نعيش في أمان الله، نأكل ما يرزقنا الله به من بحره وأرضه، والخير يعم علينا من كل ناحية، فدخلتم علينا بكلام التطور والرقي والعمران، وجلبتم كل من هب ودب إلى البلد". (السيف والزهرة، ص ١٣٨)

وبلغة وجدانية عاطفية، تسرد الشخصية الرئيسة في محكي مجتمع الصيادين قبل انتقالهم للأحياء الجديدة والمدن الناشئة مشاعر الحميمية والانتماء، وقوة الروابط الاجتماعية التي تتجاوز العلاقات الفردية وروابط القرابة إلى الانتماء الجماعي والمشاركة الوجدانية، حيث يتشارك الجميع لحظات الفرح ومشاعر التضامن والوجود المشترك، وحيث لا تنفصل سعادة الفرد عن سعادة الجماعة. تقول الساردة وهي تنقل مشهد مخاض "عليا" وما عم البيت من مظاهر التعاون والتآزر ومشاعر الفرح: "مثل هذه الأخبار السارة لن تكون حكرا على صاحبته، بل تخص الجميع، فكل النساء في القرية، وكل الرجال إخوة في قرية الصيادين في هذه البقعة من الأرض. ودبت الحركة في أرجاء البيت صباحا ومساء خلال أيام، فالنساء كلهن حاضرات، وكلهن مسؤولات، ورب الأسرة سعيد وفرحان وممتن لهن، ولا يكف لسانه عن الشكر والعرفان، كان خجلانا منهن، يترك ابيت في عهدتهن صباحا، ولا يدخله إلا بعد صلاة العشاء متسللا كالغريب حتى لا تقع عيناه على امرأة جاره". (رسائل عشاق، ص ٢٠)

تعرف المجتمعات الصغيرة والتجمعات الأولى، كما تظهر المقاطع السردية السابقة، تماسك أهلها وترابطهم، ف"في المجتمع الأول يكون الأفراد متماسكين لأنهم يتشابهون ويقومون بنفس أشكال العمل

ويؤمنون بنفس القيم والمحرمات، وعلى الرغم من الاختلاف الكبير في نظام الأدوار، فإن أي عضو من أعضاء هذا المجتمع قادر تماما على فهم أدوار – دوائر الفعل التي توليها الجماعة للفرد – العضو الآخر". (بيير زيما، ١٩٩١)

إن "الإحساس بالانتماء الشخصي للجماعات الصغيرة أو المجتمعات المحلية يشكل موضوعا حيويا لمعظم الناس، لأنه يوفر الاطمئنان السيكولوجي والارتياح والرضا النفسي مما يساهم في إتمام الأعمال اليومية، وسبب ذلك أن الجماعات الصغيرة تعطي الأفراد المنتمين إليها الإطار المريح للعمل بداخلها، ويتضح ذلك مما نراه كثيرا من تضحية الكثير من الناس بمكاسبهم الاقتصادية في سبيل الإبقاء على تماسك هذه الجماعة" (استيتية، ٢٠١٤). وفي هذا الإطار، قامت الروابط الاجتماعية في قرى الصيادين على تحقيق المصلحة في توفير مصدر العيش ودرء المصائب والخسائر الطبيعية والبشرية التي يسببها البحر وما مارسه الصيادون من مهن في أعماقه، ما جعل من العلاقات بين الأهالي علاقات قوية، ومن الأسر أسرا ممتدة يعتمد فيها الابن على أبيه. يصف الراوي في رواية "الحي الحي" مشهد تكاثف الجماعة في نشاط الصيد وتعاون أعضائها لإنجاحه دون تمييز بين رجل أو امرأة أو صغير أو كبير، وحيث اللحظة لحظة معركة تستدعي الشعور بالمسؤولية المشتركة والتضامن والتلامح لمواجهة تحديات البحر وتحقيق المصلحة المشتركة، ويعرض المشهد انسجام أفراد الجماعة في أداء الأدوار والمسؤوليات: "يهرع الجميع إلى حمل "اليل" الذي فرز وطوي بعد آخر مرة حصلوا فيها على الغنائم، يبل قطن الشبك فترتخي بعض العقد، ويعمل الرجال والنساء على حلحلة الباقي، إنها معركة، ولا وقت للتفريق بين المحاربين بحسب الجنس أو العمر، فالشأن أعظم من ذلك" (الحي الحي، ص ١٥٤)

ترتبط معركة الصيد في المقطع السردي بفكرة "كولي" عن الجماعات الأولية في كتابه التنظيم الاجتماعي (١٠٩) "بأنها عبارة عن جماعات الوجه للوجه حيث تقوم علاقات المواجهة المباشرة بين

الأشخاص. وتذوب الفرديات في كلمة نحن، على اعتبار أن الشخصية الفرد هي نتاج لحياة الجماعة، وبذلك يكون المجتمع والفرد مظهران لحقيقة نفسية واحدة". (أبو شنب، ٢٠٠٨)

وتنقل فتحية النمر ترابط الأهالي وقوة علاقاتهم في مقطع سردي عميق الدلالة، حيث تقابل الحاجات المادية بالتعاون والتضامن، ما يخفف وقع الشدائد وقلة ذات اليد، ويوفر الأمان الاجتماعي لكل فرد من أفراد الجماعة. ذلك أن "التوقعات المرتبطة بالمهام الفردية بالمجتمعات الريفية تعد من المسلمات الاجتماعية أي أنها ليست اختيارية أو متروكة لحرية الأفراد، وتبدو هذه الالتزامات قوية جدا وهامة في وقت الأزمات مثل حالات الوفاة، المجاعة وغيرها" (استيتية، ٢٠١٤). تقول الساردة: "إن العمل هو حجر الزاوية في حياة الناس في ذلك الوقت وفي كل وقت، والشرط الأساسي لضمان الحصول على القرت. وبرغم الفقر الشديد لم يحصل أن مات أحد من الجوع إلا فيما ندر بفضل منظومة الأخلاق والقيم العريقة التي عرفوا بها، وعلى رأسها الإيثار والكرم، هي مبادئ ساروا عليها منذ الأزل، فهل يليق الجار أن يأكل هو وعياله وجاره جوعان؟" (رسائل عشاق، ص ٢٤)

لقد"عرف أن الناس، عبر التاريخ، يبتكرون طرائق إبداعية للتعاون فيما بينهم. وتتجلى إحداها في جعل المصالح والأعباء المترتبة على التزام ما لا تتوقف على ما يرد فيه فحسب، بل أيضا، على ما يتطلبه التزام آخر.." (فيبر، ٢٠١٥)، وهو التحليل الذي يجد مثالا له في قول الساردة بلغة تصويرية تقوم على التعجب والدهشة من المفارقات التي قد تحصل أحيانا بين أفراد القرية، حيث تتضارب سلوكاتهم وتتناقض انفعالاتهم متراوحة بين التعاون والحقد، والتلاحم والانتقام: "إن حال الناس في هذه القرية لهو العجب العجاب، إنهم يتكاثفون، ويصيرون يدا واحدة عند الملمات والكرب، ولكنهم أيضا قد يركبون رؤوسهم، ويضربون المثل الصارخ في العناد والحقد والانتقام حين يكون ذلك مبررا في رأيهم". (رسائل عشاق، ص ٥١)

كانت العلاقات الاجتماعية في عوالم الروايات وفضاءاتها، وقبل التحولات الاقتصادية والعمرانية، علاقات مترابطة تقوم على التعاون ونكران الذات، وعلى تقديم مصلحة الجماعة على المصلحة الفردية. تنقل فتحية النمر واقع هذا الترابط في مجتمع الرواية وبين شخصياتها وفي فضاءاتها بلغة واقعية موحية ترسم صورة مركبة لطبيعة العلاقات الاجتماعية في القرية، حيث تؤدي المصلحة الواحدة والتلاحم الاجتماعي إلى التطفل وتضخيم الأخطاء الفردية لكونها تشكل تهديدا للجماعة: "إن مما لا ينكر أن هناك جانبا حلوا ومشكورا في وقوف أهل القرية جنبا إلى جنب وبذل الجهود لمساعدة الجميع قدر اسطاعتهم، فالكل يد واحدة، والكل أهل وأسرة واحدة، غير أن لهذه المسالة جانبا غير محمود، هو أن سرعة انتشار أي قصة معيبة يتورط بها أي أحد، حتى لو كانت هذه القصة بحجم رأس الدبوس أو بحجم الفيل، ثم لا تلبث أن تصبح قضية رأي عام تهم الجميع". (رسائل عشاق، ص ١٥٠)

إن الأسرة الممتدة التي كان يعيشها المجتمع الإماراتي قبل اكتشاف النفط جعل أفرادها تعيش علاقات اجتماعية قوية، ويتبادل أفرادها الدعم النفسي والاجتماعي في الحياة اليومية البسيطة التي كانت تفرض التعاون والتضامن لاستمرار العيش، "فتوارث القيم التعاملية بين الكبير الصغير، وتعلم المواقف الاجتماعية الأسرية المختلفة، يتوافر بشكل أوضح في الأسر الممتدة، بخلاف درجة وجوده في الأسر النووية، كما كانت الأسر الممتدة تقدم الدعم الاجتماعي والنفسي والمعنوي، وحتى البدني لأفرادها من قبل بعضهم بعضا، بخلاف الأسرة النووية التي تعني انعزال الأسرة في كيان اجتماعي وثقافي ونفسي وبدني خاص. وبالجملة، فالأسرة الممتدة قناة للتواصل الثقافي والديني، ولنقل التجارب والخبرات بين الأجيال حيث يتاح فيها للطفل التواصل مع جيلين أو أكثر، فتغتني معارفه ويتشبع عاطفيا ويتسع عالمه في مناخ يملؤه الحب ويتسع لدائرة واسعة من الأقارب يقدم بعضها لبعض الحماية والمشاركة الوجدانية والوقوف عند الشدائد سندا قويا". (السدحان، ٢٠١٠)

وضمن إطار الأسرة الممتدة، تنقل فتحية النمر في سخرية مبطنة تحمل انتقادا ضمنيا للمبالغة في الولاء للقرابة ولرابطة الدم التي تبرر الشر أحيانا وتضفي على الأذية شرعية اجتماعية: "إن الناس في القرية تعلي من علاقة الدم والقرابة، إذ يكفي أن يكون حتى الشيطان أخاك أو ابن عمك لتحبه، وتعاهده على الخير والشر، وتكف يدك عنه بالأذى وإن أصابك أذاه، لكن المسألة سيكون لها وجه آخر حين يتعلق الأمر بنا وبعيال فطيم الذين ساروا في النذالة والخبث حتى أقاصي الدنيا". (رسائل عشاق، ص ٤٧)

حقق التطور الاقتصادي وابتعاد قرى الصيادين عن البحر وعن مهنة الصيد، وتطور العمران بما يوفره من الحداثة والرفاه، أدى إلى تغير الأسرة من الممتدة إلى النووية، وإلى تراجع حميمية العلاقات الاجتماعية، حيث انشغل كل فرد بمصلحته الخاصة وظهرت الوظائف الحكومية التي تغير فيها تقسيم العمل الاجتماعي، ذلك أنه "في ظل المؤسسات، حدث توسع سكاني ومادي للمدينة أدى إلى ما يسمى حاليا بالمجتمع الحضري، الذي أصبحت فيه المشاكل الحضرية هي التي تمثل الموقف العام. فتنظيم القطاع الإنتاجي القائم على تقسيم العمل في المجتمع الحضري قد أدى إلى انقسامات أكبر وأكثر عددا ومتعددة الأشكال، تعاني منها الحياة في المدينة عامة. فالإنسان الحضري أضحى مقسما ومفصلا إلى أجزاء، ليس في الأدوار التي يؤديها في عمله فحسب، بل في تلك التي يأخذها على عاتقه في حياته الاجتماعية أيضا، وهو ما لم يبعد عن منتجاته الاقتصادية فقط وإنما عن إبداعه الثقافي وعلاقاته الاجتماعية أيضا". (جلول، ٢٠١٥). وهذا ما رصدته الروايات موضوع الدراسة في عوالمها الفنية التخييلية وفي ارتباطها بالواقع الإماراتي المتغير، حيث تحولت العلاقات الاجتماعية من الحميمية والدفء إلى الانفصال والبرود.

### ٤,٥,٢ تحولات العلاقات الاجتماعية

أضاء كتاب الروايات محل الدراسة، في سياق صياغتهم للعلاقات بين الشخصيات وتطورها، آفاقا واسعة لمشاهد التحول التي عرفها العالم الحكائي للروايات، وذلك وفق تقنيات متعددة تراوحت بين السرد والوصف والاسترجاع والحوار وحققت بناء فنيا أحاط بتفاصيل الأحداث ووظائف الشخصيات ومشاعرها، وحالاتها الإنسانية وعوالمها المادية المتغيرة بتغير الفضاءات المكانية والظروف الاجتماعية المرتبطة بالتحول الاقتصادي والعمراني. كما رصدت الروايات في السياق نفسه العلاقات بين الشخصيات وكشفت أحلامها وطموحاتها وواقعها المستجد الذي رسمت معالمه حركات الانتقال من البيوت القديمة والأحياء البسيطة المرتبطة بالبحر ومهنتي الصيد والغوص إلى الأحياء الجديدة التي ظهرت بعد اكتشاف النفط واستغلال عوائده في المشاريع العمرانية الكبيرة.

أدى انتقال شخوص الروايات إلى الأحياء الجديدة وتطور شكل البيوت إلى تحول كبير على مستوى العلاقات الاجتماعية، ويظهر ذلك فيما تنقله فتحية النمر بلغة عاطفية مشبعة بالحزن عن الجهد الكبير الذي تقوم به النساء للحفاظ على مظاهر الألفة وتبادل الزيارات، وحرصهن على إحياء ما تراجع من علاقات تزاور، حيث بدأت تقتصر على بعض المناسبات الدينية، وعلى تبادل الأطعمة. وتختار الكاتبة للمشهد شخصية "فطيم" التي تملأ مائدتها بالطعام مترقبة زيارة ما، لكنها لا تحصل ولا أحد يأتي، ما يدلل على الفراغ العاطفي الذي يسود الأحياء والمدن الناشئة رغم مظاهر الغنى والامتلاء المادي الذي يميز البيوت. تقول الساردة: "لكن المحزن هو أن التغير لم يكن يقتصر على المباني فحسب، حيث شمل شيئا آخر هو العلاقات، ومثال على ذلك ما طرأ على العلاقة بين "أم خلفان" و"فطيم" التي انتهت واقتصرت على تبادل الأطعمة في رمضان والعيد الصغير والعيد الكبير، غير هذا فلا علاقة أصلا، العيد ورمضان هما فرصة لا تفوتهما فطيم ولا أي عجوز أخرى، فطيم تعد تجهيزات حافلة، تشتري الحلوى العمانية بالمكسرات

والهيل والزعفران والفواكه المتنوعة.. تفاح وبرتقال وموز وعنب ومانجور عمانية أيضا عدا تلك الهندية، وتحضر المائدة العامرة في المجلس، وهي تعرف أنه لن يكون لنا زوار سوى امرأة واحدة أو اثنتين أو صديقتها المقربة على الأغلب". (رسائل عشاق، ص ٢٠٧)

كما صورت صالحة عبيد في مقطع سردي دال ومحيل تباعد الأهالي نتيجة تباعد البيوت الواسعة وتراجع الزيارات العائلية رغم تخصيص غرف كثيرة للضيوف، ما يدلل على أجواء العزلة ومشاعر الخواء العاطفي خاصة في لحظات الخيبة التي تعم البيت بعد التحضيرات الكبيرة والاستعدادات النفسية والمادية لاستقبال الضيوف الذين لا يأتون بسبب انشغالاتهم بما فرضته الحياة المتطورة من أنماط عيش مختلفة. يقول السارد: "حتى المربية هي الأخرى، انشغلت مع الخادمة التي أحضرت لمعاونتها على هذا المنزل الكبير المكون من طابقين والكثير من الغرف المجهزة لضيوف آيين ربما أو أخوة افتراضيين على سبيل الاحتمال، لم يأت منهم أحد". (لعلها مزحة، ص ٧٢)

شكل التطور العمراني وتحول الشخصيات من مجتمعات القرية إلى تجمعات المدينة في متون الروايات محل الدراسة دافعا قويا ورئيسا لتحول العلاقات الاجتماعية، وقد ربط لوكاتش بينهما ربطا علميا، إذ "كلما تغيرت المجتمعات التقليدية كان هناك اعتماد أقل على المعدلات الأخلاقية وعمليات التواصل لتحقيق التكامل الاجتماعي، وبدلا من ذلك فإن هناك المزيد من الاستخدام للمال، والأسواق والحسابات العقلانية، ونتيجة لذلك تكون العلاقات متصلة بالقيم المتغيرة وبمفاهيم الناس فيما بينهم حول بعض الأشياء" (تورنر، ٢٠١٩). بينما "يرى سبنسر أن الزيادة السكانية، بوصفها قوى بشرية، قامت بدفع المجتمعات البسيطة أو الصيادين خارج محيطهم وتوازنهم. ونتج عن ذلك عدد أكبر من الأفراد في المجتمع، مما سبب ضغوطا في الاختيار لمستويات أعلى من: (١) الإنتاج الاقتصادي، (٢) والتنظيم عبر رموز السلطة والثقافة، والتوزيع للموارد والمعلومات بين الناس، (٤) وإعادة إنتاج أعضاء جدد، ووحدات اجتماعية،

ونسق التنظيم الثقافي في أنشطتهم، وتم بناء أبنية جديدة للفصل في ضغوط الاختيار، لتصبح تلك الأبنية مميزة فيما بينها" (تورنر ، ٢٠١٩). يتساءل "سلطان" وهو يركب سيارة أجرة في دبي بلغة مشحونة بمشاعر التوتر والضغط العاطفي حول الواقع الاجتماعي المتغير ومظاهر العزلة والتوجس من العلاقات مع الآخر:

"ما بال هذا العالم، الناس يضنون على بعضهم حتى بالكلام؟ حتى بفلوسك لا تجد أحدا يرضى عنك ويفتح لك صدره، كل واحد يسير منشغلا بنفسه، كأن القيامة ستقوم، أو أنهم سمعوا عن بركان سيحرق الأرض". (السيف والزهرة، ص ٨٠)

يقدم علي أبو الريش بتقنية المونولوج صوت الشخصية الداخلي الذي يمثل قلقا عميقا يعيشه "سلطان" في رحلته إلى دبي وتجوله في شوارعها، حيث يغيب دفء العلاقات الاجتماعية وتتراجع مشاعر الألفة، حتى إنه يصعب طلبها ولو بمقابل مادي. وتشعر اللغة البسيطة المستخدمة ونبرة الاستنكار في المقطع السردي بخطر كبير وتهديد باقتراب وقوع السيء. ويستمر الكاتب في انتقاده للواقع الجديد وعبر تقنية الحوار ودوره في تشكيل بنية النص الدرامي والكشف عن مواقف وأفكار الشخصيات، يدور الحوار بين "سلطان" والمدير الذي يرجع سبب تفكك العلاقات الاجتماعية إلى العمل الذي يعزل صاحبه عن محيطه الاجتماعي ويدفعه إلى الانخراط في نمط الحياة المعاصرة. لم يعلم المدير بوفاة صديقة والد "سلطان" إلا بعد زيارة الأخير لمكتبه، ما يشير إلى تراجع العلاقات الاجماعية إلى الحد الأدنى الذي يجعل الناس مقصرين في أداء واجب العزاء في وقته. تقول شخصية المدير: "الشغل جعل الواحد لا يعرف عن ربعه شيئا، حتى الذين يموتون لا يسمع عنهم إلا بعد فوات الأوان". (السيف والزهرة، ص ٨٢)

وينقل علي الشعالي محاولة الشخصيات الإبقاء على أدنى ما تتطلبه علاقات الارتباط العائلي داخل الأسرة حيث يحاول "يحيى" أن يظل قريبا من أبنائه في ظروف اجتماعية تجعل لقاءاتهم قليلة وهم في البيت نفسه، اللقاءات المشروطة وغير العفوية التي تؤدى كواجب بلا روح أو شعيرة دينية. يقول السارد: "أدى

واجباته الدينية، وبعضا من الاجتماعية تجاه الأحياء بتناول غداء متأخر مع أبنائه الثلاثة". (الحي الحي، ص ٨)

ولأن تقسيم العمل يؤدي "في الأنشطة الاقتصادية المستحدثة إلى ظهور بوادر الفردية بين الأفراد نظرا لأن كل فرد يعمل بنشاط يختلف من حيث النوعية عن فرد آخر داخل الأسرة الواحدة" (زايد وعلام، ٢٠٠٠)، فقد قَلّت الزيارات بين العائلات، فصارت عند بعضها أسبوعية، وقد تطول أكثر من ذلك. ونزع الأفراد إلى العزلة والاقتصار على عدد محدود من المعارف والأصدقاء ولقاءات عائلية قليلة يغيب فيها التشارك العاطفي وتؤجل بتأثير من ضغوط الحياة الذاتية وما يرتبط منها بالعمل. يقول علي الشعالي على لسان سارده: "على مائدة السبت، تتلاطم الأفكار في رأس يحيى بحثا عن خطة المرحلة المقبلة، خطة كل شيء بالتفاصيل، البيت والعمل وترميم الذات من تصدعات الحزن والندم، يشعر أبناؤه أنه لا يمنحهم أكثر من نصف وقته ونصف انتباهه، وحينما يرصد متلبسا ويطلب من أحدهم إعادة جملة أو قصة، تنطلق ضحكات مفادها أن عدْ فنحن بحاجة إلى أكثر من حضور فيزيائي لأب". (الحي الحي، ص ٣٧)

يدرك الأبناء ثنائية الحضور والغياب المتمثلة في الحضور الجسدي للأب وغيابه العاطفي، وينقلون الصورة لأبيهم عبر الضحك الموحي بالسخرية من حضور الأب وغياب الحوار وانحسار الكلمات. وعلى مستوى العائلات، تقتصر زيارة أبناء "يحيى" لبيت جدهم على يوم الجمعة بعد تحول الأسرة من الطابع الممتد إل النووي، وأصبحت زيارة العائلة فرصة للانعزال وترميم النفس المتعبة من ضغوط الحياة. يقول السارد: "ذهبت ابنته سارة وابناه بعد وجبة المالح والجشيد مع الأرز الأبيض بالدهن الخنين إلى بيت أصهاره في طقس يمارس بالتزام أرثوذكسي، الجمعة يوم الأسر المتشبعة، أما بالنسبة إليه فهو استراحة المحارب من العمل وما يتضمنه من لقاء مراجعين ومرضى ذوي أمزجة متقلبة، فهو لترميم نفسه المتصدعة أبدا". (الحي الحي، ص ٩)



UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

تكشف العلاقات الاجتماعية في الروايات محل الدراسة التفاعلات المعقدة بين الشخصيات وديناميكيات التأثير والتأثر بين مكونات النص السردي وبين متغير المكان والنظام الاجتماعي الجديد وسلوكات الشخصيات داخله، ما يوفر وصفا وتحليلا عميقين للحالة الإنسانية في عوالم الحكي. إن ظهور الأحياء الجديدة وتطور المدن وانتقال الصيادين إليها واستقرارهم فيها جعل شخصيات الروايات تشعر بالعزلة وتعيش مشاعر متضاربة تتراوح بين رفض التغيير وبين محاولة التأقلم مع الجديد، وذلك حسب الأجيال وما تحمله كل فئة عمرية من ذكريات تربطها بالماضي وتجعلها تحدد موقفها من الواقع الذي ولدت معه مشاعر التصادم وانعدام الثقة والخوف على القيم والعادات والتقاليد، وتحولت معه العلاقات الاجتماعية الدافئة إلى علاقات مبتورة يضعف فيها التماسك وتضيق شبكات القرابة والصداقة وتقل إمكانات المساعدة المتبادلة. تقول السارد في رواية السيف والزهرة برؤية نقدية تعرض عالمين متناقضين، وبلغة حزينة يتحسر فيها على الماضي وفقدان الدفء الذي كان يميز العلاقات الاجتماعية ويوفر الأمان النفسي للأفراد: "كنا نعيش فقراء، وأيضا بسطاء، أما الآن، فكل شيء تغير، الناس تغيروا، البيوت تغيرت، وصارت مثل الجحور لا يعرف الجار جاره ولا يصل الصديق صديقه .. كنا نسمع الهمس الذي يدور بين الجيران.. أما الآن، فلا يوقظنا حتى صراخ الأرامل". (السيف والزهرة، ص ١١٩)

لم يعد الأفراد يعرفون بعضهم، وتراجعت المصلحة العامة، حتى إن الجار لا يسمع صراخ الأرملة في بيتها المجاور بعد ما كان ينتبه لهمس جاره زمن البيوت القديمة البسيطة، ما يعطي صورة لانعدام التفاعل الإنساني ضمم أسلوب الحياة المنغلق. تصور صالحة عبيد واقع العزلة والاغتراب الناتج عن تباعد الأحياء، والصمت السائد في البيوت الخالية من الحركة التي تعطي الانطباع بأن لا أحد يسكنها، وتقول على لسان ساردها بلغة غنية بالصور والدلالات التي تخلق جوا شعوريا قاتما معبرا عن حالة الانفصال الاجتماعي والعزلة الفردية الناتجة عن التغير العمراني والاقتصادي: "الحي المترفع هنا فيما يشبه الصمت الدائم، والبيوت

الضخمة التي تكاد تشعرك لشدة سكونها أن لا أحد يقطنها، حتما علي أن أتمرن بسرعة على نظامنا الجديد، على هذا الصمت المنفلت كابنة وحيدة تدرك للتو هذه العزلة، التي راحت تتضاعف". (لعلها مزحة، ص ٧١)

إن تطور العلاقات الأسرية والاجتماعية ضرورة لتطور السرد والشخصيات، ويظهر ذلك واضحا فيما عبر عنه السارد من تحول اجتماعي جعل الأحياء تعيش نظاما جديدا على الجميع التمرن على قبوله والتكيف مع حالة العزلة المتزايدة التي يفرضها، حيث تحكي انشغال والدة "ميرة"، بعد انتقال العائلة إلى الحي الجديد، بإعادة بناء علاقاتها الاجتماعية التي أصبحت علاقات مبتورة يحكمها الانفصال والتباعد رغم القرب الجغرافي للبيوت، ذلك أن الحركات السكانية "تفقد المجتمع طابع التوافق السكاني وتفقد العلاقات الاجتماعية بين أفراده طابع الاستقرار والوضوح بسب تواصل الحركة وضعف فرص الالتقاء الاجتماعي أو انعدامه، وهذا ما دعا بعض علماء الاجتماع إلى القول إن الهجرة المستمرة إلى المدن تفقد الأفراد عناصر الولاء للجماعة وتضعف شعورهم بالانتماء، وتحرمهم من فرص تكوين علاقات اجتماعية دائمة مستقرة". (السدحان، ٢٠١٠). يقول السارد: "فيما انشغلت والدتي بإعادة تأثيث علاقاتها الاجتماعية الجديدة، علاقات اجتماعية مبتورة، لا ترتكز على المشاركة الدائمة، تلفها الحواجز، الاقتراب الغامض والابتعاد المباغت وطقوس متكلفة". (لعلها مزحة، ص ٧١)

لقد شكل تراجع العلاقات الاجتماعية نتيجة طبيعية للابتعاد عن الأحياء القديمة والجيران والبحر الذي جمع العائلات حول مصدر عيش مشترك ومورد طبيعي واحد، "فنتيجة للهجرة من الريف والقرية والبادية والاستقرار في المدن، والاحتكاك بثقافات وخلفيات اجتماعية متعددة ومتنوعة، ونتيجة للاختلاف في التركيبة السكانية، تبرز مشكلات متعددة منها ما يتعلق بسوء التكيف الاجتماعي مع المجتمع الجديد، ومنها ما يتعلق بالخوف من فقدان الذات والضياع في ثقافة المجتمع الجديد، الذي يخالفه في الكثير من

مكونات الثقافة الفرعية، ومنها ما يتعلق بالانغماس في الخطأ على اعتبار أن هذا هو المطلوب في المجتمع الجديد، ومنها ما يتعلق بسوء التقدير للكثير من المعطيات في جوانبها المتعددة، ومنها ما يتعلق بالمكونات الشخصية للفرد". (السدحان، ٢٠١٠)

تشعر الشخصية الساردة في محكي فتحية النمر بالاغتراب حين تسرد تسللها خفية خارج البيت للالتحاق بصديقاتها في حفلة تجمعهن، وتعرض الفكرة نفسها في محكي صالحة عبيد، فكرة التباعد العاطفي رغم تقارب البيوت، وواقع انقطاع أواصر المحبة والتضامن بين الناس، ما يضفي شعورا حزينا على السرد يزداد باستدعاء الماضي مقابلا للحاضر، وباستخدام ضمير المتكلم الذي يضفي صدقا على المشاعر وعلى التجربة الإنسانية المشتركة. تقول الساردة: "بيوتنا اليوم تتقارب مثلما كانت في القرية الأولى، لكنْ هناك فرق جوهري ينبغي ذكره، ففي الماضي كانت العلاقات بين أصحاب البيوت وثيقة ووطيدة وقوية، بينما اليوم لم يعد ذلك كله موجودا، بل مفقودا للأسف، لقد صرنا كالأغراب لا نعرف بعضنا، فمن أين جاءت الحواجز والحدود التي لم نعرفها قديما، وفرضت نفسها علينا، وقطعت كل الأواصر والعلاقات". (رسائل عشاق، ص ١٠٥)

سؤال تطرحه الساردة لتحدد جوابه في المدينة والمدنية والتحضر، ذلك "أن المجتمعات الحضرية الكبيرة والمعقدة في التركيبة الاجتماعية والسكانية يظهر فيها ضعف الروابط الاجتماعية والتعاون والألفة والتكاثف والتكامل الاجتماعي وكثير من صور عدم التلاقي الاجتماعي بين الأفراد نتيجة للاختلاف بين الأفراد في المجالات الاجتماعية والثقافية والتراثية، وكل يحاول الحفاظ على ما لديه ويدعي صحته، وبهذا يظهر ضعف الروابط بين الأفراد في الأحياء والانعزال والخصوصية العالية وتنشأ المشكلات الكثيرة، ولا شك أن من أسباب ذلك عدم وجود فرصة وظروف مكانية وزمانية لتحقيق الالتقاء بين أفراد المجتمع ممثلا في الأحياء المتناثرة في المدينة، أو في العمائر الشاهقة متعددة الأدوار". (السدحان، ٢٠١٠). تقول الساردة: "ورغم

كثرة وسائل الترفيه والراحة المتوفرة في البيوت هذه الأيام، اختفى شيء ما من القلوب، شيء كان له أثر عظيم في بث الطمأنينة والسلام والراحة والسعادة، اليوم لا أثر لشيء من ذلك حتى في أقل درجات حضوره، ولعلها ضريبة المدينة". (رسائل عشاق، ص ١٠٥)

يظهر وعي الشخصية في إقرارها سبب التحول وفي تفاعلها مع المجتمع الجديد بروابط ضعيفة وقيم متغيرة بسبب الهجرة إلى المدن الناشئة، حيث "يؤدي الانتقال المفاجئ الناتج عن الهجرة غير المخطوطة، سواء على مستوى الأفراد كان أم الجماعات، إلى آثار سلبية في البناء الاجتماعي بسبب الصراع بين القيم التقليدية مع القيم المستحدثة؛ فانشطار الأسرة الأصلية بسبب الهجرة يؤدي إلى ضعف الرقابة التي يقوم بها الآباء على أبنائهم وتقلص مساحة سلطتهم في الإشراف والتوجيه، وما يتبعه من انقطاع وندرة الزيارات والتواصل بينهم ما يفرغ الأسرة التقليدية من بعض مضامينها النفسية والذهنية، وفي الوقت نفسه نجد أن ذلك الانشطار يفقد الأسرة النواة الاعتماد على الآباء والإفادة من تجاربهم ومشورتهم في حل المشكلات الزوجية والحياتية عامة". (الربيعي، ٢٠٢٠)

ولأن العلاقات الأسرية والاجتماعية تعمل على بناء السياق التاريخي والثقافي للرواية وتوفر شعورًا بالانتماء والدعم للشخصيات، فإنها غالبًا ما تشكل مرآة للقضايا المجتمعية التي تستكشفها الرواية. تنقل الساردة في (رسائل عشاق، ص ٦٩) حدث سرقة بيت "فطيم"وما قررته "حصة" في رأيها حول علاقة الجار بالجار، حيث سادت مشاعر الخوف وعدم الأمان في الأحياء، وحالة الشك وعدم الثقة في الجيران: "لم تيأس حصة، بل عادت بعد أيام لتخوض في نفس الموضوع مجددا متذرعة لي بقولها إن الناس لا ترحم، والبيوت في الليل غير آمنة، ثم قالت: "ما يدريك أن اللصوص لا يقتحمونه عليك؟ ونحن في زمن صار الجار فيه لا يعرف عن جاره شيئا".

إن ما قالته "حصة" حول تحول العلاقة بين الجيران إنما أفرزه ظهور الأحياء الجديدة وحالة العزلة والانفصال الاجتماعي التي صارت تحكم العلاقات بين الناس، ذلك أنه "نتيجة لتباعد أطراف المدينة إثر توسعها وكثافتها السكانية المستتبعة لظاهرة التوسع، فضلا عن الانشغال الكبير من قبل سكانها بهمومهم الخاصة وانشغالات مجتمع المدينة بشكل عام، برز إلى سطح المجتمع المدني خلل في طبيعة التفاعل الاجتماعي بين أفراد الأسرة الواحدة من جانب وبين أفراد الحي الواحد – الجيرة – من جانب آخر". (السدحان، ٢٠١٠)

تراجعت حميمية العلاقات الاجتماعية في عوالم الروايات محل الدراسة بعد انتهاء مهنة الصيد في قرى الصيادين وابتعادهم عن البحر، واختفت بعض الأخلاقيات والقيم التي كانت تشكل إطارا للمعايير والأحكام والسلوك. "إن القيم ونظم المعايير يمكن أن تتغير بسرعة في مجتمع يتسم بتقسيم العمل وتخصص متزايدين. إن زوال مهنة من المهن (الإسكافي، صانع القدور) يمكن أن يتسبب في اختفاء أخلاقيات بكاملها تخص مهنة معينة ونظاما بأكمله من المعايير، ويمكن لمثل هذا التحول الاجتماعي الاقتصادي أن يثير توترات ويخلف إحباطات ويثير العدوانية في قلب بعض الجماعات" (بيير زيما، ١٩٩١). وفي هذا السياق، تعرض فتحية النمر تحول الأهالي والعائلات إلى الحياة الجديدة وتراجع دفء العلاقات الاجتماعية، وذلك باستخدام تقنية التقابل بين الماضي الجميل والحاضر القاسي، الماضي البسيط الذي لم تمنع ظروفه القاسية الناس من الالتزام بما توارثوه من عادات تقوي الروابط وتنشر مشاعر الألفة ومعاني التعاون، والحاضر الذي استسلم له الجميع لما يوفره من أسباب الراحة والترف متناسين ما فرضه من قطع لروابط التضامن ومشاعر الأمان. تقول الساردة: "إن صعوبة الحياة وقسوة الظروف لم تقف حجر عثرة حيال الالتزام بالأخلاق والعرف والعادات المتوارثة، وفي النهاية نسوا الماضي، وطووا صفحته للأبد وفتحوا صفحة جديدة". (رسائل عشاق، ص ٥٣)

إن التحول الذي عرفته عوالم الروايات وفضاءاتها أدى إلى تباعد الشخصيات وهجر الأبناء لآباءهم بعد انحسار نظام الأسرة الممتدة، "وحسب رأي دوركهايم، فإن النسق القرابي يتعرض للتفكك بسب انقسام الأسرة التقليدية إلى أسرة نواة صغيرة. وفي المقابل فإن المؤسسات المهنية تقدم دعما تعويضيا لما كان يقدمه النسق القرابي للأسرة التقليدية" (الربيعي، ٢٠٢٠). ينقل الشعالي صورة علاقة "يحيى"شبه المبتورة بابنه سعيد، علاقة باهتة يحاول أن يعوض غياب الحميمية والحوار فيها باجتهاده في عيادته التي يكرس لها ولعمله كل جهده ووقته. ويحكم البرود والبعد العاطفي علاقتهما، حيث ينشغل كلاهما عن الآخر في حياة تتسم بالرتابة والتكرار رغم محاولة الأب اليائسة مد جسر للتواصل الكلامي على الأقل بينهما مع إدراكه أنها ستكون فاشلة. يقول السارد: "يلتقط يحيى أنفاسه نازلا درج بيته، وعابرا سحابة من البخور. يلتحق بمائدة الفطور حيث يتناول سعيد حبات الجزرالصغيرة، والطماطم المعدلة جينيا وهو منغمر حتى أذنيه في فيديو من ذلك الصنف الذي سقطات وإصابات عشوائية مضافة إليها الضحكات المسجلة، يسلم على ابنه دون أن يقاطعه، فهو يعلم أن فرصته في إنشاء حوار ليست عالية. إنه مضطر إلى التأمل ثم القراءة على شاشته لدقائق إلى أن تحضر سارة المقلاة". (الحي الحي، ص ٣٣)

تحولت العلاقات الاجتماعية في عوالم الروايات محل الدراسة من القوة والترابط إلى الضعف والعزلة والاغتراب بتأثير من التحول الاقتصادي والعمراني، وبفعل تطور البنية التحتية وتغير شكل البيوت والأحياء، تغير المظهر العام للتجمعات السكنية وظهرت المدن المتطورة والمدارس والجامعات الحكومية، وتم تمكين المرأة الإماراتية من التعليم والعمل، حيث حققت تطورا ملحوظا وأصبحت مشاركة في مجالات الحياة المختلفة وصاحبة قرار في بيتها وعملها.

## ٤,٦ تحولات دور المرأة

### ٤,٦,١ المرأة قبل النفط

يأخذ المتن الحكائي في الروايات محل الدراسة القارئ إلى عوالم المرأة قبل اكتشاف النفط، وذلك من خلال بناء الأحداث وتشكيل النص الروائي بعناصرة المترابطة لإنتاج المعاني والدلالات، وعبر تأثيث الفضاءات بشخصيات تنهض بالحدث وتصوره من خلال حركاتها وعلاقاتها بالزمان والمكان المتغيرين. وقد مثلت الشخصيات جيلين مختلفين عبرا عن معطيات الواقع وعن مجتمع المرأة ودورها ومكانتها في النسق الاجتماعي المرتبط بالنشاط الاقتصادي التقليدي.

ظهرت المرأة في الروايات محل الدراسة في مجتمع ما قبل النفط عنصرا مشاركا في النظام الاقتصادي التقليدي المرتبط بالصيد، حيث مارست أنشطة تقليدية بسيطة خاضعة للحاجة إلى توفير الغذاء والاكتفاء به دون النظر إلى الكماليات التي لم يعرفها اقتصاد الكفاية الذي ساد فضاءات المتون الحكائية، وهو النظام الذي تحكم في تحديد المهام وفرض تقسيم العمل داخل الأسرة، حيث ظهر الرجل بقوته العضلية صيادا في القرى المجاورة للبحر، ومزارعا في واحات الصحراء، وتكلفت المرأة بتدبير أمور البيت وتربية الحيوانات، كما ظهرت مشاركة في تجارة السمك وبيع ما يوفره قارب الزوج من خيرات البحر في أسواق القرية.

تصور فتحية النمر تقسيم العمل التقليدي في قرية الصيادين على الساحل، حيث تظهر كفاءة المرأة في عملها المنزلي وتسويق ما يحضره الزوج من رحلات الصيد بعد سد حاجة الأسرة، ما يجعل عملها في البيت يمتد للنشاط التجاري ومساهمتها بالتالي في اقتصاد القرية دون أن تتجاوز السلع المواد البسيطة التي يوفرها الصيد وبعض الأنشطة المنزلية. تقول الساردة: "ومع الأيام، جعل الخير يجلب مزيدا من الخير، والقارب الواحد صار ثلاثة، والأحوال من حسن إلى أحسن حتى إن فطيم غالبا ما تبدو محتارة فيما تفعله بالغنائم الوفيرة التي يجلبها زوجها بد أن يكون قد باع أكثرها، فكانت تقوم بتمليح السمك خاصة القباب

والكنعد، وتزيل عنه الذيل والرأس والزعانف والأجزاء الداخلية، وتقطع القطعة الواحدة إلى نصفين بالطول، وتكدس عليها الملح ثم تصفها في طبقات بعضها فوق بعض في علب كبيرة من الصفيح، وتغطي العلبة جيدا بالقماش النظيف كي لا يدخل الهواء فيها، فيفسد السمك. وكانت تحتفظ بجزء لاستخدام الأسرة الشخصي في فصل الشتاء، عندما يصير ركوب البحر صعبا، بسبب الهواء والرياح العاتية المتقلبة والمتوحشة، وتعرض الباقي للبيع لنساء القرية في سوق العرصة، وكن يثقن بعملها، ويصفنه بالمتقن". (رسائل عشاق، ص ٥٩)

وفي ارتباط بالبيئة الاقتصادية والاجتماعية، خضع دور المرأة في الروايات محل الدراسة للتقسيم الجنسي للسلطة والعمل، ولتبادل الخدمات وتعلقِ المرأة والرجل ببعضهما تعلقا متبادلا بحيث يكون كل منهما ناقصا حسب دوركهايم ورأيه في العلاقات القائمة على تقسيم العمل، "فصورة الكائن الذي يتممنا تصبح في أنفسنا غير قابلة للانفصال عن صورتنا، لا لأنها كثيرة الاقتران بها وحسب، بل لأنها، بشكل خاص، التتمة الطبيعية لها: وإذن فهي تصبح جزءا مكملا ثابتا من وجداننا، بحيث إننا لا نستطيع أبدا الاستغناء عنها، ونبحث عن كل ما يزيدها قوة، ولهذا نحب الاجتماع بمن تمثله، إذ أن وجود الموضوع الذي تعبر عنه، يهبه بروزا أكبر، بما يتيح له الانتقال إلى مستوى الإدراك الحالي". (دوركهايم، ١٩٨٢)

وبذلك كان تعلق المرأة بالرجل قائما على التكامل في الأدوار، وظهرت الزوجة مشاركة في الأعمال اليومية، تؤديها بكد واجتهاد في دعم واضح لزوجها. تنقل فتحية النمر صورة المرأة الكادحة من خلال نشاط "فطيم" اليومي والمتمثل في بيع بعض المنتجات المنزلية البسيطة في الأسواق المحلية للقرية، وتدبير ما تحصل عليه من بقرتها ودجاجاتها من حليب ولبن وبيض، ما يعكس قدرة المرأة على التدبير وتحمل مسؤولية البيت في ظروف عيش صعبة. تقول الساردة: "تنهدت الأم المسكينة وهي تعيد ترتيب شيلتها على رأسها، وقد جمعت بعض الصرر التي تحتوي على الحناء المطحونة، وبعض مطحون "النبق" على اعتبار أنها بعد

الإفطار ستقصد سوق العرصة، لتعرض محتوياتها على المشترين مثلما اعتادت كامرأة نشيطة ومكافحة تقف إلى جانب زوجها في السراء والضراء، همست: "الحمد لله، لقد صار عندي ثماني بيضات وقليل من الكامي واللبن، أطال الله عمر بقرتنا العزيزة". (رسائل عشاق، ص ١٢٥)

لم يكن بمقدور المرأة طلب الراحة أو إهمال واجباتها داخل البيت، بل جعلت من داخلها دافعا طبيعيا يهيؤها لأداء مهامها الصعبة وتدبير أمورها ابتداء من ساعات الصباح الأولى. تقول الساردة في (رسائل عشاق، ص ١٢٢): "استيقظت كعادتها في الصباح الباكر مع انسلال أول خيوط الضوء، وفيها من الحماسة والرغبة في العمل ما أشكل عليها تفسيره، وقد انطلقت ناحية الحب، وتناولت الماء وشربته، وغطت الوعاء بخرقة نظيفة، وراحت تسحب الماء من البئر بالدلو لأغراض التنظيف والغسيل ولترتوي الحيوانات، وقد أشعلت المقود بعد أن ألقمته الحطب الذي تعودت على أن تحفظه في ناحية قريبة منها". و"كان عليها ممارسة حياتها كما وجب، والاضطلاع بمهامها المعروفة من تنظيف وطبخ وكنس ورعاية للحيوانات والطيور والذهاب إلى السوق ومباشرة تجارتها الصغيرة". (رسائل عشاق، ص ٢٦٧)

بينما يقتصر عمل "أبو سرور" داخل البيت على الأعمال المتعلقة بعدة الصيد، ولا تخرج مهامه عن ذلك حتى في وقت الأزمات أو الضرورات القصوى التي تجعل المرأة غير قادرة على أداء مهامها حسب تقسيم العمل القائم في القرية، تقول الساردة في محكيها عن "عليا" الزوجة الثانية ل"أبو سرور": "كانت عليا قد فقدت الأمل في عودة الحبيب، وإن كان عقلها وقلبها مشغولين به، حتى لقد راحت في هذه الأيام تستعيض عن الحبيب بطفلها المنتظر الذي تتمنى أن يكون نسخة من سرور... في ذلك اليوم، وعند ذلك الوقت تحديدا، كانت فطيم منهمكة في كنس الرمل بمكنسة من السعف، وكان محمد يجلس تحت السدرة، يصلح شباك صيده، وبين الحين والحين يمرر المروحة على وجهه طالبا الهواء". (رسائل عشاق، ص ٣٢٣)

ولا يختلف دور نساء القرية عن دور "فطيم"، ولا يخرج عن النسق الاجتماعي المهيمن في مجتمع صغير تحكمه علاقات إنتاجية تقليدية بسيطة، ويرتبط فيه عمل المرأة داخل البيت وخارجه بعمل زوجها، حيث تكلف بمهام يومية كثيرة ومتعبة، وتتعدد مسؤولياتها بين عمل البيت والعمل اليدوي الذي تبيعه في الأسواق. تعمل النساء في محكي فتحية النمر وهن مجتمعات في بيت "فطيم" في اللحظات التي يفترض أن تكون للراحة والتواصل الاجتماعي، وتمارس كل واحدة عملا يدويا وحرفة تقليدية أثناء تبادل الحديث، ما يظهر تعاون نساء القرية لأداء دورهن المزدوج الذي يتحملن فيه عبء إدارة شؤون البيت إلى جانب مسؤولية بيع المنتجات المصنوعة يدويا في السوق. تقول الساردة وهي تصف العبوس الذي ولد به "سرور" ابن "فطيم" واستمر معه في سنوات طفولته، وما يسببه ذلك من خوف لدى النساء المجتمعات عند "فطيم":

"وتوالت الأيام والشهور والسنون، وكبر المولود، وصار في الرابعة من عمره، ومازال العبوس يلازمه مثل اسمه، كان لا يبتسم، ولا يعرف الضحك، ملقيا بصنيعه الغريب الخوف والريبة في أعماق الجارات اللواتي كن يجتمعن عند فطيم يتحادثن، ويعملن معا، وفي يد كل منهن شغلها، فهذه تأتي بالكاجوجة الخاصة بها، وتصنع التلي، وتلك تتسلى بقماش تقصه، وثالثة ترتق، ورابعة تنقي الأرز للغداء، وأخيرة بصدد عمل سلال من الخوص". (رسائل عشاق، ص ٢١)

جعل السرد في المتون الحكائية محل الدراسة المرأة قبل النفط شخصية مكافحة مقهورة، تقوم بأعمال البيت وتربي الأبناء وتهيؤهم لوظائفهم حسب نظام تقسيم العمل السائد، كما تضطلع بأعمال الحرف التقليدية البسيطة التي توفر أدوات العمل في البيت وخارجه، وتقوم بأعمال التجارة وبيع ما تنتجه من في علاقة لا تنفصل عن شروط الإنتاج المجتمعية، "وفي تحديدهم لأنماط إنتاج ما قبل النفط، عدد الباحثون أساليب الإنتاج الشائعة آنذاك دون توصيفها بشكل دقيق. فقد عرف اقتصاد ما قبل النفط أساليب إنتاج عديدة هي: الغوص على اللؤلؤ، الزراعة، والرعي، والتجارة (الداخلية والخارجية) والحرف والصناعات

التقليدية. وكانت هذه الأساليب الإنتاجية تعمل من خلال علاقات إنتاجية تقليدية ترتبط بالتنظيم العائلي والقبلي وتساندها بنية قانونية وسياسية تقليدية". (زايد وعلام، ٢٠٠٠)

وينقل علي أبو الريش، في عملية بناء شخصيات الرواية ومحيطها، مشهدا لعمل المرأة عبر تقنيتي السرد والوصف، حيث تظهر الزوجة مسؤولة عن أعمال البيت، وعن استقبال زوجها العائد من رحلة الصيد وتلبية حاجاته وحاجات الأبناء. يقول السارد: "عاد خلفان من البحر، يشعر بالجوع يقرص بطنه، نادى أم سلطان، هرعت بسرعة لتلبي حاجة الزوج، أعدت الإفطار وراحت تنادي الأبناء واحدا واحدا بعد الآخر" (السيف والزهرة، ص ٣٣). واقتصر عمل "موزة" كما بقية نساء القرية على أعمال البيت والمطبخ والعناية بالحيوانات، يحكي السارد: "تنهمك موزة في كنس بيت الغنم وإزالة الروث وإطعام بهائمها" (السيف والزهرة، ص ٣٣). ويتم تنشئة الفتيات على تعلم أعمال البيت وتأهيلهن للزواج بعيدا عن أي فرصة للتعليم في المدارس التي لم تكن موجودة في القرى. يقول السارد: "أما زينب فلم تعر الحديث انتباهها لأنها كانت تفكر في شغل البيت الذي سيعقب الإفطار فورا". (السيف والزهرة، ص ٣٤)

تحضر المرأة في رواية "الحي الحي" بالصورة نفسها في الروايات الأخرى محل الدراسة، تقوم بأعمال البيت وتساعد الرجال في مهمة الصيد بما يسهل عملهم ويضمن توفير القوت اليومي من السمك. ينقل علي الشعالي على لسان سارده دور أم "يحيى" في إعداد قوارب الصيد للخروج في رحلتها قبل ساعة الفجر، وتجهيز ما يلزم من مواد لحفظ السمك، ويظهر عملها مرتبطا بعمل زوجها وجزءا أساسيا في في سلسلة عملية الإنتاج: "تزود سعيد الصياد وإخوته بالراحة استعدادا لصباح طويل سيقضونه في الصيد بالشباك، يستيقظون قبيل الفجر، تسبقهم الخادمة حليمة إلى أبيهم بقبضة التمر وطاسة اللبن، منهمكون كلهم في إعداد الحبال والسكاكين وسلال السمك وأوعية المياه، بينما تقوم الأم بإعداد قناني الملح وسلال السمك والخل لاستقبال الغنيمة". (الحي الحي، ص ١٧٨)

ويتم إعادة تشكيل الأدوار في تقسيم عمل جديد في وقت الأزمات والتحديات التي يواجهها الصيادون، فيدفع بالمرأة إلى العمل الجسدي الشاق الذي يعد من اختصاص الرجل باعتبار قوته البدنية، ويصبح العمل داخل البحر جماعيا لا تمييز فيه بين المتحاربين بناء على الجنس أو العمر. يقول السارد في (الحي الحي، ص ١٥٤): "يهرع الجميع إلى حمل "اليلّ" الذي فرز وطوي بعد آخر مرة حصلوا فيها على الغنائم، يبل قطن الشبك فترتخي بعض العقد، ويعمل الرجال والنساء على حلحلة الباقي ويعمل الرجال والنساء على حلحلة الباقي، إنها معركة، ولا وقت للتفريق بين المتحاربين بحسب الجنس أو العمر، فالشأن أعظم من ذلك؛ إما أن يظفروا بسرب السردين أو يحكم الجوع قبضته".

أما الفتيات الصغيرات، فلم يكن حالهن أفضل من أمهاتهن. تصور فتحية النمر القمع الاجتماعي الذي كان يمارس على المرأة بسلطة العرف والتقاليد والعقلية الذكورية السائدة، وتقول بصوت ساردها بلغة تقريرية واقعية تصور تجليات القمع وتقييد الحريات بشكل متوارث من جيل لآخر: "كان الشاب ذا علاقة متينة بأخته، وكانت صديقته في تلك الأزمنة التي ستحكم عليها وبحسب العرف والعادة بالبقاء في البيت، وتحرم عليها الخروج منه إلا للضرورة، لقد حبسوها مثلما حبسوا أمها، وحبسوا جدتها، وحبسوا فطيم، وكل بنات القرية بمجرد ظهور علامات معينة على الواحدة منهن كدليل قاطع على أنها بلغت، ولا يليق بأن تقع عليها عيون الأغراب والأجانب". (رسائل عشاق، ص ٤٤)

ترتبط القيود المفروضة على المرأة بفترة بلوغها وظهور علامات الأنثى الناضجة في جسدها الذي يصبح خطرا يجب اتقاؤه وعارا محتملا على المجتمع دفعه عبر العزل والإقصاء، وبذلك منعت من الخروج من البيت وفقدت حريتها كاملة واستبعدت من المساهمة في الحياة الاجتماعية وممارسة حقها في اللعب والتعليم. وحين يحين زواجها، لا تستشار ولا تسأل عن رأيها. ينقل الحوار في "رسائل عشاق" صورة لتهميش المرأة وتغييب صوتها حتى في الأمور المصيرية الخاصة بها كالزواج، حيث تقول أم "عليا" وقت

اجتماع الأسرة بعد تقدم "أبو سرور" لخطبتها في لغة تعيد بها إنتاج ما نشأت عليه في المجتمع الذكوري من قمع للمرأة، وذلك من خلال عملية استبطان ما تشبعت به من فكرة الأنوثة والضعف: "منذ متى نستشير البنات؟! هل البنت تعرف مصلحتها أكثر من أبيها؟! ومِن المطوع الذي هو والد الجميع". (رسائل عشاق، ص ١٥٧)

وينقل السرد سببا من بين الأسباب التي جعلت والد "عليا" يقبل وساطة (المطوع) في خطبة "أبي سرور" لها: "ألح المطوع في الطلب، وأخذ منه وعدا قاطعا بالموافقة، وأضاف ليختم كلامه بأنه سيكون هو وأسرته والقرية كلها من الرابحين بهذه الزيجة السعيدة، وهل هناك عاقل يرفض طلب خميس الذي ينعم بالعز ولذيذ العيش؟! ثم عاد لتذكيره بالمهر الكبير فوافق الرجل فورا، ليس لأنه ضعيف الإرادة أمام المال، بل لأنه لا يرضى أن يأخذ عنه المطوع فكرة سيئة بأنه ضعيف الشخصية، وأنه يخاف من أهل بيته، أو أن لابنته صوتا أعلى من صوته". (رسائل عشاق، ص ١٥٧)

لم يقم قرار الأب قبول زواج ابنته الصغيرة من رجل كبير السن متزوج ثلاث نساء على مصلحتها، بل صدر عن حرصه على سلطته والخوف من زعزعة هيبته أمام سلطة الدين متمثلة في "المطوع"، وفي سلطة المال المتمثلة في المبلغ الكبير الذي عرضه "أبو سرور" مهرا ل"عليا". تنتقد فتحية النمر عبر صوت الراوي المجتمع الذكوري التقليدي والذهنية الذكورية السائدة التي تهمش المرأة وتغيب صوتها، وتنظر إليها كخطر يهدد بنية المجتمع إن هي تجاوزت السلطة الأبوية وسلطة الدين والمال التي تتظافر جميعا لتعزيز قمع حريتها. كما تنتقد فرض الصمت والخضوع على المرأة حتى في أمورها الخاصة والقرارات المصيرية التي لا تملك فيها رأيا ولا مشورة، واعتبارها قاصرة عن معرفة مصلحتها.

وفي ترجمة وفية للنسق التصوري السائد، ووفق منطق الهيمنة الذكورية، تحرم المرأة من التعليم، وتعتبر مصدر قلق وخوف يهدد العائلة والمجتمع الصغير. لم يكن يسمح للمرأة بالتعلم، وإذا تعلمت، فإنها لا

تتجاوز الصفوف الابتدائية الأولى. تتزوج "علياء" في رواية "لعلها مزحة" في سن أكبر مقارنة بالفتيات في مثل سنها، ويندم أخوها على أن سمح لها بالالتحاق بالمدرسة، فقد كان ينظر للتعليم على أنه سبب تأخر الفتيات في الزواج مما يدفع الأسر التي تعلم بناتها إلى إيقاف تعليمهن في صفوف مبكرة. ويلوم المجتمع "سهيلا" لخروجه عن التقاليد وعزوف الشباب عن خطبة أخته لاعتبارها كبيرة في السن وهي ما تزال طفلة، ما يبرز هيمنة التقاليد وتدخلها في تحديد مصير الفتيات. يقول السارد: "يعرف أنها تصغره بسبع سنوات، وأنها بالنسبة إلى بنات جيلها كانت متأخرة عن الزواج .. يتذكر أن "سهيل" كان دائما يعلل بأن المدرسة هي السبب، كان عليه أن لا يسمح لها بأن تصل إلى الصف الرابع لم يتخيل أن لوم الناس له لخروجه عن التقاليد المتبعة سيجعلهم يعزفون عنها كعروس مقترحة لأبنائهم ". (لعلها مزحة، ص ١٠٩)

اقتصر تعليم بعض الفتيات في قرى الصيادين على تعلم بعض سور القرآن عند (المطوع)، تقول الساردة في (رسائل عشاق، ص ٢٣٠): "لقد بذلت فطيم قصارى جهدها واستماتت لتلحقنا أنا وحصة بالمطوع كسائر عيال القرية، حتى إن لسانها لم يكف يوما عن ترديد السؤال المزعج: "متى تنتهون من حفظ جزء عم؟"". أما غير القرآن، فغير مسموح للفتيات تعلمه، ومن تجرؤ على قراءة غيره فإنها تعاقب. ينقل حديث "فطيم" ل"حصة" و"عليا" صورة احتقار المعرفة غير الدينية وإقصاء المرأة عن كل أنواع العلم التي تتجاوز قراءة القرآن وحفظ بعض سوره، وغير ذلك يعد عملا مشبوها يهدد السلطة الاجتماعية والقيم السائدة. تستهين "فطيم" بما وجدت من كتب وأوراق بين يدي ابنة زوجها، وتستخدم التهديد والعنف المادي والمعنوي لمنعها وأختها من مجرد التفكير في قراءة كتب غير القرآن: "ثم تضيف وهي محدقة في الوجه الحائر والمغلوب على أمره، والعصا تعلو، وتهبط وعلى وشك القيام بالمهمة المحددة: "منذ متى والبنات يهمهن القراءة؟ غير القرآن كتاب الله فإن كل شيء تافه ولا معنى له، أما هذه الأوراق فمكانها الصنية".

وعلى عجالة، تلتقط الكتب وتقذفها في خيش كبير واحدا واحدا، وتعقد الرأس وتصيح: "سآخذها للمطوع يحرقها، أو يوزعها على الفقراء، على الأقل يأكلون عليها"". (رسائل عشاق، ص ٣٦)

تمثل شخصية "فطيم" نموذج الفرد الرافض لكل جديد داخل مجموعته حفاظا على سلطته ومصالحه، ذلك أن "الإنسان بطبعه مفطور على المحافظة على الموروث والتخوف من كل تغيير أو تجديد، لأنه يطمئن إلى ما يعرفه وإن كان لا يرضيه، ويتخوف مما لا يعرف وإن كانت فيه احتمالات كثيرة واضحة للخير، لأن كل جماع لا تخلو من أفراد أو طبقات منها تستفيد أكثر من غيرها من النظام القائم، وهذه الطبقات هي دائما صاحبة القوة والثروة والسلطان، سواء أكان ذلك السلطان سياسيا أم اقتصاديا أم معنويا دينيا، وأي تغيير في الأوضاع القائمة لابد أن يمس بصورة ما تلك الامتيازات، ولهذا نجد أن هذه الطبقات تعمل دائما على المحافظة على النظام القائم والعادات الموروثة والتقاليد التي تصبح مع الزمن جزءا من نظام الحياة، حتى يتصور الناس أن أي تغيير في هذه التقاليد يؤدي إلى انهيار النظام كله" (مؤنس، ١٩٧٨). ويتم توظيف الدين لإضفاء الشرعية على إقصاء المرأة من التعليم وحصرها في تعلم القرآن. تقول الساردة في (رسائل عشاق، ص ٢٣٤): "كانت فطيم تغتنم الفرصة كلما أبصرتني ممسكة بكتاب، لتصرخ بي وتهدد: "الكتب بيوت الجن والشياطين". وقد كانت تستشهد بأمثلة غريبة حفظتها من الناس في القرية والقرى الأخرى تدور حول تأثير الأوراق السيء على بني البشر، فكل علم خارج نطاق الدين هو خراب ومفسدة للعقل، وتسهب في سرد الأمثلة العجيبة: "لم سيعذب الله إبليس؟""

ويتماهى صوت فتحية النمر مع صوت ساردتها وشخصيتها الرئيسة في قولها: "ذكرت أنني لم أتلق تعليما نظاميا كافيا يعتد به، وأعني تعليما من النوع الذي يؤهل متلقيه لأن يظهر ويعرف بين الناس، تعليما يمنح صاحبه فرصة أن يجد لنفسه مكانا لائقا ومعترفا به في عقول وقلوب الناس في قرية الصيادين في منتصف الخمسينات من القرن الماضي، كنت حينها في أولى سنوات الطفولة، هذا النظام التعليمي الذي

بدا مستهجنا ومرفوضا عند الكثير من الناس كأمر طبيعي لدى أصحاب العقليات المتحجرة ولدى أكثر الناس، وأنا حين أبين موقف الناس في القرية من النظام التعليمي أو فكرة التعليم أو المدرسة فأنا أعني موقفهم بالنسبة للأولاد، لكن عندما أتعرض لحالهم بالنسبة لتعليم الإناث فقد كان الأمر أشبه بالكارثة الحقيقية، بل كان غزوا لا ينبغي السماح بوقوعه، لأنه سيصير واقعا ويترسخ في الأفهام". (رسائل عشاق، ص ٢٢١)

رسمت الروايات الأربع بحكاياتها المختلفة وتقنياتها الروائية صورة قاتمة لعوالم المرأة قبل النفط، إذ "غالبا ما تقف الفئات المحافظة في المجتمع عقبة أمام إحداث التغير الاجتماعي، حرصا على أوضاعهم التقليدية وخوفا من ضياع حقوقها المكتسبة" (استيتية، ٢٠١٤). "وبجانب هذا الموقف المعارض للتغير الاجتماعي من جانب الفئة المحافظة حفاظا على حقوقها المكتسبة، فإنها تخشى قبول التغير أيضا، لما يترتب على ذلك من تغيرات في مكونات البناء وعناصر الثقافة. إضافة إلى أن الأفكار الجديدة الداعية إلى التغير غالبا ما تتعرض للمقاومة الشديدة نتيجة التعصب للقديم وتقديس بعض جوانب الحياة" (استيتية، ٢٠١٤). وفي هذا السياق، تقول الساردة في (رسائل عشاق، ص ٢٢٢): "لقد رأى الأهالي في التعليم مدخلا واسعا للشيطان، وحربا علنية على الدين والأخلاق الحميدة المتوارثة، ولذا فإنهم لن يتهاونوا أبدا ولن يخلوا السبيل أمام بناتهم خشية أن يخطر بباله الانحياز لهذا الاتجاه والتوجه، وهل هم حمقى ليمنحوهن الفرصة لتجريب مثل هذا الخراب؟ وليصرن حرائر لساعات بعيدا عن أعينهم ومراقبتهم، ويخالطن أناسا غرباء لا احد يعلم ما جاؤوا به؟ ثم إنهم لو سكتوا على الأمر فانهم سينشرون الشر ويكسرونه؛ لذلك قالوا بصوت واحد: "ما يدرينا ألا تنحرف البنات ويخرجن على العادات والتقاليد؟ وما الضامن ألا يتمردن علينا ويسقطن سلطتنا المحكمة عليهن منذ الأجداد؟""

بدأ التحول على مستوى دور المرأة ووظيفتها مع وعي الجيل الجديد الذي سمع تجارب تعلم فتيات قليلات والتحاقهن بالمدرسة. تصف فتحية النمر إصرار الشخصية البطلة على قراءة الكتب من خلال محاربة زوجة أبيها التي تمنعها من ذلك: "فأجري ناحيتها محاولة الإمساك بها، وأحكم غلق الباب بالمفتاح، وأخطف الكيس من يدها، وأهرب به إلى الغرفة، أدفع بابها بصدري، وأخرج المحتويات، وأصفها إلى جانب بعضها، وأمسح العناوين مسحا سريعا، فيدخل إلي بصيص من الأمان والراحة قائلة: "عندي شيء يسليني، ويعوضني عن المجانين". (رسائل عشاق، ص ٣٧)

### ٤,٦,٢ التحولات في دور المرأة

شهدت عوالم الروايات محل الدراسة تحولا كبيرا على مستوى وظيفة المرأة ودورها في الأسرة والمجتمع بعد التحولات التي عرفتها قرى الصيادين وانتقال أهلها إلى المدن الناشئة، وبعد التطور العمراني الكبير الذي أعقب اكتشاف النفط وتطور الاقتصاد والاهتمام بالتعليم. وظهرت شخصا قادرا على اتخاذ قراراته الشخصية والعملية في مختلف المجالات. ينقلنا السرد في رواية "لعلها مزحة" إلى العقد الأول من الألفية الثالثة، حيث ظهرت "ميرة" طالبة في باريس بعد أن طلبت من والدها أن تكون كذلك دون أن يمانع، واستطاعت أن تسافر بمفردها وتتابع دراستها في بلد غربي منفتح يوفر الحريات ويحفظها، ما يعطي صورة واضحة لتحول المرأة من شخصية تابعة للأب أو الزوج خاضعة لسلطة المجتمع إلى شخصية طموحة مستقلة تتخذ قراراتها المتعلقة بتكوينها الأكاديمي وتسعى لطلب العلم وتحقيق الذات في مجتمع تحول بإيقاع سريع. تقول "ميرة": "أبلغ والدي برغبتي بمواصلة الماجستير في الخارج، لقد أحببت "باريس" أريد أن أقضي فيها المزيد من الوقت، أردت هروبا مؤقتا، يعيد لي التوازن" (لعلها مزحة، ص ٢١٨)

تضع صالحة عبيد القارئ أمام مشهد تتسع فيه طموحات المرأة وتنفتح عالميا على الثقافات الأجنبية بعيدا عن القيود التي عاشتها الأمهات والجدات قبل عقود من الزمن، ما يدل على تغير النظرة المجتمعية لدور المرأة وتراجع أنواع السلطة التي كانت تمارس عليها باسم الدين والأعراف والتقاليد. كما يظهر وعي ميرة بذاتها وبحاجاتها النفسية التي تشعرها بالتوازن فتحقق ذاتها وتستمر في طموحاتها ومسيرة تعلمها وتطوير ذاتها في مجتمع عالمي أكثر شساعة وانفتاحا. "وتقوم فكرة إبراز دور التعليم في تغير أوضاع المرأة على فرضية أن التعليم يتيح مزيدا من الفرص أمام المرأة للمشاركة في الحياة العامة وفي عملية التغير ذاتها، فضلا عن أنه يغير من مكانتها داخل الأسرة وبالتالي مشاركتها في صناعة القرار". (زايد وعلام، ٢٠٠٠)

ويستمر تقديم شخصية "ميرة" في سياق اجتماعي وأكاديمي يبرز تطور دور المرأة ومكانتها في المجتمع الإماراتي، حيث تظهر طالبة في العاصمة الفرنسية باريس، في كلية الفنون الجميلة التي تقدم تكوينا فنيا جماليا لطلابها. تحضر "ميرة" محاضرات الأستاذ "جيلبرت" وتشارك ضمن الأنشطة التدريبية الجامعية في أشهر الفضاءات العالمية كمتحف اللوفر برمزيته الثقافية العالمية، وبدلالته على وعي المجتمع الإماراتي بضرورة تمكين المرأة ودعم تعليمها داخل البلد وخارجه. ويتم تقديمها شخصية واعية تتأمل تفاصيل الأشياء وتحلل تناقضاتها. يقول السارد: "راح يقدم لها ولمجموعة من الطلاب شروحات متفرقة لأهم مواضع الجمال في بعض ما استعرضه متحف اللوفر الفرنسي.. طلاب وطالبات في سنتهم الأخيرة.. يستعدون للتخرج في كلية الفنون الجميلة، ويقومون برحلة تدريبية خارجية، يشرف عليهم هنا الشاب الذي تبقى "ميرة" في تأمل دائم لتناقضاته". (لعلها مزحة، ص ١٧٨)

وعكس الواقع الذي عاشته الشخصيات النسائية قبل التغيرات الاجتماعية، يظهر واقع جديد يوفر الفرص التعليمية للمرأة دون تمييز بينها وبين الرجل، ودون حضور لنظرة التوجس والخوف من أنوثة المرأة واستبعادها عن الأنظار لهذا السبب. سيفتح التعليم ل"ميرة" مجالا للتعرف على أستاذها الفرنسي والزواج

منه رغم الاختلافات الجوهرية في الدين والثقافة والهوية والانتماء، وهذا ما يؤشر على تحول كبير في بنية التفكير لدى المرأة والمجتمع الذي لم يعارض، متمثلا في شخصية والد "ميرة"، زواج ابنته من أجنبي في الدين والثقافة والبلد مادام أشهر إسلامه. تقول "ميرة": "ألتقي "بجيبلرت"، يتحول ذلك النفور القديم إلى اشتغال، لا أذكر كثيرا من التفاصيل، لكنني أذكر القرار المصيري الذي كان عليه أن يتخذه، لكي لا يتحول ذلك الاشتغال إلى انفجار عظيم، يحصدنا معا، يوم أشهر إسلامه امتثالا لرغبة والدي، وإن كان الأمر فقط بمثابة الإشهار على الورق". (لعلها مزحة، ص ٢١٩)

على أن بدايات تعليم المرأة كان موازيا لبدايات التحول الاقتصادي في عوالم الروايات محل الدراسة، حيث "يواكب التغير في مجالات النشاط الاقتصادي الحديث بوادر تحولات في العلاقة الارتباطية التقليدية بين دوري الزوجة والزوج خارج المنزل. فقبل النفط، كاد دور المرأة خارج المنزل أن يكون ملتصقا بدور زوجها في عمله وهذه حالة اجتماعية قد ترجع إلى التكاملية بين المجالين الاقتصادي والاجتماعي للأسرة الخليجية التقليدية. بينما في فترة ما بعد النفط، وتحول الرجال نحو العمل في التنظيمات البيروقراطية الحديثة التي تتطلب خبرات متخصصة قد لا تتوفر لدى الكثير من الزوجات، فضلا عن ممارستهن لأنشطة أخرى في مواقع عمل متباينة، قد باعد بين الزوج والزوجة في مجال العمل (معن عمر، ١٩٩٠، ١٦٥)، واكتساب كل منهما سمات شخصية جديدة". (زايد وعلام، ٢٠٠٠)

وفي هذا السياق، بدأ إنشاء المدارس وظهر التحول التدريجي في وعي الآباء بضرورة تعليم بناتهم. تنقل فتحية النمر صورة لوضع المدارس في أوائل الخمسين من القرن الماضي حيث البدايات الأولى لتعليم النساء بصعوباتها المختلفة المتمثلة في الحاجة إلى استقدام مدرسات من خارج البلد لغياب الخبرة المحلية، ووجود بقايا التفكير التقليدي الذي يرى في تعليم الفتيات عيبا وخروجا عن التقاليد ويجعل من عدد الملتحقات بالمدارس قليلا. تقول الساردة: "كانت بعض البنات ممن نفذن بجلودهن قد التحقن بها بصعوبة،

وبدعم من مدرسات طرن إلينا من الخارج، من مصر والكويت، مدرسات أخذن على عاتقهن مهمة التدريس. كنت أصل إلى موقع النافذة من الخارج وقد أخذ مني التعب والإرهاق مأخذا، أفترش الأرض وأستمع بقلبي وحواسي لدروس اللغة العربية والدين والحساب والعلوم، وأستفيد من شر المدرسة وكأنني حاضرة بين البنات قلبا وقالبا. كان عدد البنات آنذاك لا يتجاوز ست أو سبع بنات، وكان اسم المدرسة رابعة العدوية". (رسائل عشاق، ص ٢٣٥)

تمثل الشخصية البطلة ومن تذهب إلى المدرسة من الفتيات نموذج الفتاة المصرة على تحدي الصعوبات، ويمثل اسم أول مدرسة في القرية جهود الدولة في تشجيع الآباء على تعليم بناتهن في المرحلة التأسيسية للمدارس عبر إطلاق أسماء نساء خالدات من التاريخ الإسلامي على المدارس لربطها بالهوية الإسلامية ولتشجيع الآباء على تسجيل بناتهم في المدارس.

تظهر الشخصية البطلة في رواية "رسائل عشاق" متمردة تصارع التقاليد السائدة، تنشد الانعتاق من ربقة الجهل والأمية وغير راضية بما تفرضه سلطة التقاليد والأحكام الموروثة. "وإنه لصحيح وفي حكم المؤكد أنه ما من مجتمع تقليدي يخلو من أعضاء تعد غير راضية بصورة ما عن القواعد والأحكام، وألا توجد به من بذور التغيير ما قد يقلب التكوين التقليدي رأسا على عقب ويحدث تغيرات في الشخصية وفي الحضارة، حتى ولو لم يكن المجتمع قد تعرض لقوى خارجية مؤثرة ومحدثة للتغير" (أ. هاجين، ١٩٦٢). تواصل الشخصية تمردها على سلطة زوجة أبيها التي منعتها من التعليم لتحضر خفية دروسا تتابعها من تحت شباك الصف الدراسي دون أن تدخله أو تكون طالبة رسمية في المدرسة التي تعد مبني غريبا غير مألوف في القرية. تقول الساردة: "في تلك الأيام البعيدة منتصف الخمسينات كما أسلفت، طالما سرت، كنت أمشي يوميا مسافة طويلة جدا لأبلغ مكان المبنى المختلف عن البيوت، والذي أطلقوا عليه اسم

"المدرسة"، كان المبني طينيا ضئيلا، له نافذة خشبية عريضة مشرعة على الأزقة يبدو منها المارة وكأنهم نقاط على سطور". (رسائل عشاق، ص ٢٣٥)

وبين "فطيم" و"نفيسة"، بين سلطة القديم وانفتاح الجديد، وفي سياق اجتماعي وثقافي يعكس التحولات التي بدأت تظهر في المجتمع، تنجح الشخصية البطلة في الالتحاق بالمدرسة، وتقول ساردة قصتها حول عدم التحاقها بالتعليم الرسمي وتعلمها تعلما غير نظامي بمساعدة المدرسة "نفيسة" التي كانت تلقنها الدروس من النافذة: "وبمساعدة هذه المرأة الفريدة من نوعها بدأت مشوار التعلم السري المخفي عن الأنظار والأسماع، وبقيت على هذا الحال ردحا من الزمن مواصلة التعلم حتى الصف السادس بمساعدة نفيسة صاحبة اليد الطولى في تشكيل الوعي المبكر والسليم عندي". (رسائل عشاق، ص ٢٣٧)

بقيت البطلة تعاني عقدة الجهل وعدم الحصول على شهادة رغم صبرها وتضحياتها، وذلك بسبب قلة الفرص في التعليم الرسمي في سنوات الخمسينات التي شهدت بوادر الاهتمام بالتعليم وإنشاء المدارس، وبسبب التمييز في تلك الفترة بين المرأة والرجل في التعليم الذي يؤهل للعمل والحصول على وظيفة تحقق للمرأة استقلالها المالي وبالتالي حقها في اتخاذ القرارات. تقول الساردة: "ولست مرتبطة بوظيفة لأنني لم أنل حظا من التعليم الرسمي المعترف به الذي يمنحني ورقة القبول في الوظائف المتوفرة لغيري من البنات اللواتي أنهين دراستهن الثانوية، ومنهن من التحقن بجامعات خارج البلاد، في مصر والكويت، ولكن مقارنة بالذكور فإنهن يشكلن نسبة ضئيلة جدا". (رسائل عشاق، ص ٢٠٢)

وينقل محكي "أميرة" في رواية "الحي الحي" صورة المرأة في المجتمع الإماراتي الحديث، حيث استطاعت بشهاداتها وحنكتها أن تتقلد منصب المدير التنفيذي لمستشفى "يحيى"، وأن تمثل نموذج المرأة المتعلمة ذات الشخصية القيادية، الواثقة في نفسها بفضل ما توفر لها من إرادة وتعليم وفرص للتطور، حيث تظهر عنصرا فاعلا وطرفا رئيسا في صفقات مالية واستثمارية كبيرة مع مستثمرين أجانب تتخد في حضورهم قرارات



UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

استراتيجية حاسمة، وتبدي ثقة عالية في قدراتها على المبادرة والتسيير في أكبر المشاريع في عالم المال والأعمال، في دبي المتطورة اقتصاديا وعمرانيا وحضاريا. يقول السارد: "وتنطلق إلى موعدها الأول حيث تلتقي كيم مديرة أعمال المستثمرين العالميين في مقهى صغير وغائر في مشروع سكني على أطراف دبي، وبعد ساعتين من الحوارات تختتم أميرة: "قليل من الوقت ليس إلا، أرجو أن تدركوا أن الوقت هو كل ما أحتاجه، وليس لدي شك أن الأمور تسير إلى حيث نريد، سيوقع وسيكون الوضع الجديد مرضيا لنا جميعا". (الحي الحي، ص ١٢٠)

مثلت "أميرة" نموذج الفتاة المتمردة والشخصية الخلاقة كما يسميها (هاجين، ١٩٦٢) بصفاتها الرئيسة، "وهي التفتح للتجربة واكتساب الخبرة، والنزعة إلى إدراك الظواهر كشيء قابل للتفسير، وهذا هو الأهم، والتصور الخلاق الذي يتركز أساسا في القدرة على إخضاع اللاشعور لإرادة الفرد وجعله يعمل من أجله، وثقة الفرد في حكمه على الأشياء والشعور بالرضا في مواجهة المشاكل وحلها"، إذ فرضت هيبتها ونظامها في المستشفى، وأظهرت حزمها في مواجهة التحديات وتأثيرها في بيئة العمل بعد حصولها على مقعد في مجلس الإدارة. يقول السارد: "صارت مجاراتها عسيرة حتى على يحيى نفسه، لكنه لم يحاول، وحازت إمكانات لا طاقة لأحد بها، تدخل العيادة صباحا فينتظم الفريق الإداري وكأنما كثيب مرت عليه جرافة، وما إن يصل بريد يحمل اسمها على الشبكة الداخلية إلا وتمغنطت الرؤوس إلى الشاشات، وصار الأطباء ذوو الخبرة أشبه بطلبة الثانوية العامة في حرصهم على معرفة النتائج واستكناه المصير، أو مواجهة الواقع بمراراته الفجة، أما إن دعي أحدهم إلى اجتماع معها فيظل طوال أسبوعه يبحث في مواقع الوظائف تحسبا لأي قرار قد اتخذ، أو نزاع قد ينشأ إبان دفاعه عن كرامته". (الحي الحي، ص ١١٥)

ولم تكن "أميرة" الشخصية الوحيدة التي تعلمت وتقلدت أعلى المناصب، وإنما تعددت الشخصيات في البناء الفني للرواية لتحرك أحداثها وتؤثث فضاءاتها بأسماء نسائية كثيرة، مثل "وفاء" المسؤولة عن الدعم

الإداري، و"تماضر" مسؤولة المختبر، و"سارة" ابنة "يحيى" التي حاولت إنقاذ عيادة أبيها من الإفلاس بعد تخرجها من كلية الطب وإتقانها المهارات الإدارية التي مكنتها من مواجهة الأزمات وتجاوز الإخفاقات المهنية. وقد شغلت مكتب أبيها الذي انتشر خبر انتحاره في لندن، واستطاعت بناء علاقات مهنية بعد توليها منصب رئيس مجلس الإدارة، ما يؤكد اعتراف المجتمع الحديث بدور المرأة القيادي وإمكاناتها المهنية العالية التي تجعلها صاحبة القرار في عملها. يحكي السارد دور "سارة" القيادي في إنقاذ عيادة والدها: "اتفق الإخوة على سياسة حكيمة لتقسيم الدخل بما يضمن حياة وإن كانت شرايينها ضيقة إلا أنها تبقى كريمة تمرر ما يكفي من الأوكسجين. وبعد بضعة أشهر جاء تخرج سارة من كلية الطب قسم التجميل بمثابة فأس حادة أهديت لحطاب معوز وقليل الحيلة، فقد شغلت مكتب أبيها، وشرعت تزاول المهام الفنية وشيئا مما أهمله من الأدوار الإدارية وتمكنت من توطيد صلاتها بالأطباء، الخاصة المخلصين ليحيى والرافضين لتغول الشريك. وبإرشاد المحامي، تم تشكيل مجلس إدارة جديد برئاستها وعضوية إخوتها مقابل ثلاثة مقاعد للشريك الأحمر، كما منحت عضوية شرفية لمتنفذين وشخصيات مهمة تضع المحافظة على هذا المشروع الناجح وضمان استقراره هدفا أسمى". (الحي الحي، ٢١٧)

أما محكي جدة "سارة"، فيظهر دورها الكبير في اتخاذ القرارات المهمة في حياة الأسرة في ظل انشغال الأب بتجارته، حيث كانت تملأ فراغ غيابه وتتحمل مسؤوليات كبيرة عرفت من خلالها كيف تتخذ قرارات حاسمة ومؤثرة خاصة بالأسرة والأبناء، وكيف تحافظ على مكانة الأسرة في شبكة العلاقات الاجتماعية التي تمكنها من المحافظة على التقاليد وتحقيق التوازن النفسي في دورها المركب بين مسؤوليات البيت ومهام الأب الذي يكثر غيابه. يقول السارد: "وعملت الأم – بالتوازي مع الحراك الاجتماعي والتجاري الذي كان يخوضه الأب – على ردم فجوة غيابه بلعب دور الأب، وكانت تراوح بين الصرامة والمرونة، وتتخذ مواقف وقرارات مؤثرة في حياة أبنائها، وتحرص هي أيضا على صيانة شبكة علاقاتها بحضور المناسبات،

والتواصل مع الجيران في رمضان والأعياد الدينية والوطنية، وتلبية الدعوات بأشكالها كافة. إلا أن هذا الجهد كان، ربما عن غير قصد، يزيح الأب المكافح عن بؤرة اهتمامها، وربما، عن غير قصد أيضا كانت تقوم بكل شيء على أفضل ما يرام إلا أن تكون أما حانية". (الحي الحي، ص ٤٣)

أدى تعلم المرأة وتغير مكانتها داخل المجتمع إلى تغير مسؤولياتها ومهامها، "ويمكن القول بأن تغير المكانة الاجتماعية للمرأة هو سبب ونتيجة في آن واحد للتغير في بناء الأسرة وفي وظائفها. فمن حيث البناء الأسري تتجه الأسرة تحت تأثير التحديث الحضاري إلى الشكل الزواجي صغير الحجم؛ من حيث الوظيفة تفقد العديد من وظائفها التقليدية نتيجة لظهور مؤسسات متخصصة تؤدي تلك الوظائف التي كانت تقوم بها الأسرة بشكل غير متخصص. يضاف إلى هذا أن من طبيعة عملية التحديث الحضاري ذاتها تغيير معايير التقييم الاجتماعي ونسق المراكز والأدوار، أما ما يطلق عليه "هاري جونسون" الأوضاع الاجتماعية، فمع اتساع معدلات النمو الحضري والتقدم الصناعي وانتشار التعليم، تتاح الفرص أمام النساء للتحرر والتعليم والعمل وتحقيق قدر كبير من الاستقلال الاقتصادي سواء قبل الزواج أو حتى أثناء الزواج . هذا إلى جانب أن ظهور الخدمات المتخصصة في رعاية الأطفال وأعداد الوجبات الغذائية والخدمة المنزلية ... إلخ، ساعد المرأة المتزوجة على تخصيص جزء كبير من وقتها للعمل". (السمالوطي، ١٩٨٩)

وقد مكن تمكين المرأة وتعليمها من مساهمتها في قرارات الأسرة ومنحها قيمة رمزية ووضعا ماديا جعلها طرفا مساهما في القرارات المصيرية للبيت، على أن وجود الجيل القديم المرتبط بالبحر وحياته البسيطة والرافض للجديد كان سببا في تأخر تطور وعي بعض الأسر في قبول تعلم بناتها وتمكينهن من استخدام ما وفرته الصناعات الحديثة من أدوات وأجهزة توفر أسباب الرفاهية والراحة، "ذلك أن أعضاء المجتمعات التقليدية، كما رأينا، يتخوفون بوجه خاص من نزعتهم إلى المقاومة أو التمرد، ومن ثم يكتبون دوافع خلق الأشياء أو تغييرها في أعماق اللا شعور، فلا مخرج لها منه وينتج عن هذا أن تصبح قدرتهم على الإنعاش

صغيرة جدا، ويكون تفتحهم للتجربة ضئيلا. كما يعوزهم التصور الخلاق الذي يتخذ سبيلا للإفادة القصوى في أية ظاهرة غير متوقعة قد تصل إلى علمهم. كما أن كلا من حاجتهم للرضوخ، وحاجتهم للتسلط بعد البلوغ، تجد ما يشبهها في مركزهم في البنيان الاجتماعي السلطوي. ومن ثم يعوزهم الدافع للبحث عن منافذ للتغيير الفني والاجتماعي. هذا فضلا عن أن بعض مميزات الشخصية هذه تؤلف مقاومة إيجابية للتغيير". (أ. هاجين، ١٩٦٢)

وفي هذا السياق، ظهر رفض "فطيم" في رواية "رسائل عشاق" لفكرة قيادة المرأة للسيارة، وذلك من خلال حديث الساردة عن عدم قبولها شراء سيارة للأسرة والسماح لابنتي زوجها بسياقتها على الرغم من أن بعض النساء تمكن من اكتساب هذا الحق الذي كان حكرا على الرجال، ما يدل على استمرار وجود قيود تعيق وصول هذا الحق إلى كل النساء، مثل العقلية المحافظة التي تخشى الجديد وتحرم مظاهر الحداثة، والتي تمثلها "فطيم" بما ورثته من النظرة الدونية للمرأة في مجتمع ما قبل النفط. تقول الساردة: "منذ أعوام شاع استخدام السيارات بين الناس لتكون العلامة اللافتة في الشوارع كوسيلة نقل معتمدة، بعد أن تم الاستغناء عن الحيوانات والشاحنات والسيارات الكبيرة، وأصبحت كل أسرة تملك سيارة خاصة بها، اما نحن فلم تكن حصة من ذلك؛ اذ ان عدم وجود رجل في بيتنا جعلنا غير محظوظين بامتلاك سيارة خاصة. وقد كان من اللافت أن بعض النسوة تمكن من الظفر بما كان يبدو أنه من نصيب الرجال فقط، وصرن يقدن سياراتهن، لكن مثل هذا الترف لن يعرف طريقه إلينا، ونحن في عصمة العجوز الخرقة... ففطيم ممن يكرهون السيارات حد الموت، حتى أنها كانت كلما لمحت سيارة تنهب الطريق، بادرت إلي تغطية وجهها مستعيذة بالله.

- أعوذ بالله من هذا الشر.

- وهل السيارة شر؟

- أ لم يصنعها الكفار؟" (رسائل عشاق، ص ١٠٦)

تنقل صالحة عبيد صورة المرأة التي تعلمت وصارت مشاركة في صناعة القرار، وتمكنت بفضل التحولات الاجتماعية وتطور التعليم والانفتاح على الآخر من تحقيق مكتسبات كبيرة كان من بينها تمكينها، في إطار الخلاف حول أهليتها، من قيادة السيارة والقيام بمهماتها خارج البيت وداخله. تقول "ميرة" التي تعلمت في باريس وهي تسترجع أحداث الحادي عشر من سبتمبر وحوارها مع والدتها التي عرضت عليها إيصالها إلى المدرسة بسيارتها التي تسوقها بعد أن سمح للمرأة بقيادة السيارة انسجاما مع مظاهر التحضر: "أوصلتني أمي إلى المدرسة على غير العادة" (لعلها مزحة، ص ٧٥)، وتقود "ميرة" أيضا سيارتها: "تتنهد الآن وهي تواصل القيادة في ذلك الشارع الفرعي". (لعلها مزحة، ص ٢٠٣)

لقد شكل التعليم مرحلة حاسمة في حياة المرأة عبر أحداث الروايات محل الدراسة، وقد كان حضور المرأة فيها، قبل دخولها المدارس والجامعات، باهتا لا يتجاوز القيام بأشغال البيت ومساعدة الزوج في صناعة أدوات الصيد البدائية، كما ظهرت خاضعة للهيمنة الذكورية بآلياتها التي تكرس سلطة الرجل المطلقة عليها. "ولأهمية متغيري التعليم والعمل في تغيير أوضاع المرأة ومكانتها نجد أن الحديث عن تعليم المرأة يعتبر بديلا عن الحديث عن أوضاعها الاجتماعية ومكانتها في الأسرة والمجتمع. ولقد تبدى ذلك بوضوح في دراسة عن "تطور مكانة وتعليم المرأة في دول الخليج العربي" (صبيح أحمد، ١٩٨٨)، فالدراسة في معظمها دراسة عن التعليم – وبصفة خاصة تعليم البنات – في دول الخليج مع تركيز خاص على دولة الإمارات العربية المتحدة، دون الاهتمام بتغير وضع المرأة ومكانتها. ولعل السبب في ذلك هو الاعتقاد الضمني بأن تغير المستوى التعليمي للمرأة يعني بالضرورة تغير وضعها ومكانتها أو أن وضع المرأة يتغير بنفس القدر الذي يتغير به مستواها التعليمي" (زايد وعلام، ٢٠٠٠). تعلمت "ميرة" وقبلها الكثير من الفتيات، بل أصبح

التعليم إلزاميا للفتيات بعد انفتاح البلد وتطورها وما عرفته من تحولات مجتمعية كبيرة، وتمكنت "ميرة" بفضل تعلمها من أن تكون صاحبة قرار حتى في أمر مخالفتها تقاليد الزواج حين ارتبطت بأستاذها الفرنسي.

فرضت المرأة بفضل التعليم مكانتها في مجتمعات الروايات محل الدراسة، واستطاعت أن تتجاوز نظرة المجتمع الإقصائية لها، كما أصبحت مساهمة في قوة العمل وفي اتخاذ القرار، فانتصرت بذلك على مثبطات تعلمها ومساهمتها في التنمية، و"من الطبيعي أن تعيش المرأة في المجتمعات النامية، ومنها دولة الإمارات، مشكلات اجتماعية تتعلق بتعليمها وعملها وحقوقها، ولكن تطور وضع المرأة على تلك الأصعدة في العقود الثلاثة الماضية يدل على حداثة على الرغم من المشكلات التي تعانيها المرأة الإماراتية، وقد تناولت دراسات عديدة وضع المرأة في الإمارات فركزت على مدى مساهمتها في قوة العمل خصوصا في التسعينات من القرن العشرين. وبما أن دولة مثل الإمارات تسرع الخطى في التحديث فإنه من الطبيعي أن يتغير وضع المرأة ومشاركتها في العمل، وزيادة وتوسع تعليمها". (التميمي، ٢٠١٨)

بعد تصنيف التحولات الاجتماعية في الروايات محل الدراسة وتحليلها، وبعد تبين كونها إطارا عاما للأحداث في الأعمال الأربعة، تطرح أسئلة ارتباطها بالواقع وطريقة رصدها فنيا عند الكتاب. ولأن النص الأدبي محكوم بحقيقة الواقع وغير منفصل عن شروطه الاجتماعية، ستدرس الباحثة الروايات وستجيب عن أسئلة الدراسة انطلاقا من هذه الرؤية للربط بين التحولات الاجتماعية في المتون السردية المختارة والواقع الاجتماعي الذي أنتجها، ويعد مؤثرا في حركة التغيير الفنية التي انتقلت معها روايات "لعلها مزحة" و"الحي الحي" و"رسائل عشاق" إلى التطور والتجريب عبر مسيرة تطور التاريخ والوعي، في حين مثلت "السيف والزهرة" نموذج الرواية التقليدية باعتبار كتابتها في وقت قريب من بداية التحول المجتمعي.